بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٢٤ ـ جمادى الاولى ١٤٣٠هجرية قمرية

اردیبهشت ١٣٨٨هجرية شمسية / مايس (ايار) ٢٠٠٩

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: ٨٨٣٢١٦١٦ +٩٨٢١هاتف: +٩٨٢١ ٨٨٣٢١٤١١

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥-١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني: info@taghrib.ir

الموقع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤ ـ ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥ ـ المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٢٤

رسائل القرآن ٤

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي ١٣

المطهري والصدر والإحياء الديني ٣٦

الشهيد مطهري يقف عند كتاب إقبال ٤٣

الشهيد مطهري يعالج الانحراف في مفهوم العمل ٤٨

الإمداد الغيبي في رؤية الشهيد مطهري ٥٩

ضرورة الايمان الديني في رؤية الشهيد مطهري ٧٦

عالم الآخرة في رؤية الشهيد مطهري ٩٤

طبيعة المجتمع البشري في رؤية الشهيد مطهري ١٠١

مفهوم الإنسان للعالم في فكر الشهيد مطهري ١١٢

مقابلة مع الأستاذ الشهيد مطهري ١٢٠

الشهيد مطهري وإحياء الفكر الإسلامي ١٣١

وحدة الأمة في خطاب الشهيد مطهري ١٥٠

رسائل القرآن

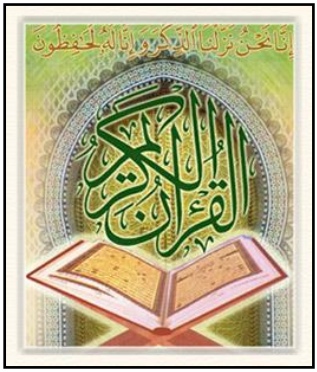

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

محسن قراءتي*

٩٨ - ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾

الرسائل:

- العداء لكل مقدس من المقدسات هو عداء لكل المقدسات: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾.
- معاداة الأنبياء والأولياء كفر وعداء لله: ﴿فإن الله عدوٌّ للكافرين﴾.
- هناك مِنْ ملائكة الله مَنْ هم مِنَ المقربين والمتميزين: ﴿وجبريل وميكَالَ﴾ ذُكرا من بين الملائكة.

٩٩ -﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾

---

* ـ داعية إسلامي معروف.

الرسائل:

● إذا استرسل الإنسان في فسقه وانحرافه، ولم يتدارك نفسه بالتوبة يتدحرج إلى هاوية الكفر: ﴿وما يكفر بها إلاّ الفاسقون﴾ ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾(الروم/١٠).

● هذه الآية تردّ على ابن صوريا الذي ورد ذكره في الآية ٩٧، فهذا الرجل حين تذرع بحجج واهية في إعراضه عن الإيمان بالنبي الخاتم جاء الرد في الآية المذكورة، لكنه من أجل أن يواصل مشروعه الإغوائي ادّعى بأن الجواب الذي تلقّاه لم يكن بيّنًا. فجاءت هذه الآية لتقول إن الآيات بيّنات لكنّ الذي يحول دون الإيمان هو الارتكاس في الانحراف. : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

١٠٠ - ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

الرسائل:

● الآية تؤكد نقض القوم للعهود: ﴿نبذه فريق منهم﴾

● الآية الكريمة تنصف من كان غير منحرف من القوم وتخصّ فريقًا بنقض العهد: ﴿نبذه فريق منهم﴾ ولا تعمم عدم الإيمان عليهم جميعًا: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وهو درس لنا في طريقة إصدار الأحكام.

١٠١ - ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

الرسائل:

● وهذه الآية أيضًا تؤكد عدم شمول حكم نبذ كتاب الله لكل اليهود: ﴿نبذَ فريقٌ﴾.

● عدم العمل بالعلم يساوي الجهل. وعلماء اليهود الذين يعلمون بأن الرسول مصدّق لما معهم، ولكن نبذوا كتب الله هم ﴿كأنهم لا يعلمون﴾.

١٠٢ - ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾

الرسائل:

● الآية الكريمة تتحدث عن مكيدة أخرى وانحراف آخر لليهود في التاريخ.

● هؤلاء اليهود اتجهوا إلى السحر: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾، وفي الروايات أن النبي سليمان(ع) أمر بجمع مدوّنات السحرة كي لا تنتشر بين الناس، والاحتفاظِ بها. ولكن بعد وفاته وقعت بيد جماعة، واستخدموها في تعليم السحر.

● هؤلاء السحرة ادّعوا أنّ سليمان كان يمارس السحر، وذلك لتبرير انحرافهم، لكنه كان بريئًا من هذا العمل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ﴾، وتعبير ﴿وما كفر﴾ يعني أن ممارسة السحر مساوية للكفر.

● اليهود تعلّموا السحر من مصدر آخر غير ما جمعه سليمان من السحرة، هؤلاء تعلّموا ذلك من مَلَكين هما «هاروت» و«ماروت» نزلا ببابل بصورة بشريّة من أجل إبطال سحرِ السَّحرة. وما كان ذلك ممكنًا إلاّ أن يعلّما الناس أساليب السحر، إذ لا يمكن مواجهة مكيدة إلاّ بتعليم أساليبها، ولكن الملكين كانا يحذّران من الوقوع في فتنة استعمال هذه الأساليب في طريق منحرف: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ لكنّ هؤلاء القوم كانوا يستخدمون هذه الأساليب في تمزيق الأسرة والمجتمع: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

● هؤلاء حين يمارسون هذه الأساليب الهدامة لا يخرجون عن إرادة الله، لكنه سبحانه شاء أن يجري الارتباط بين المؤثّر

والأثر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾، وكان بإمكانهم أن يتعلموا من هذه الأساليب ما ينفعهم لمواجهة كيد السحرة لكنهم ﴿يتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم﴾.

● من رسائل هذه الآية المباركة أنّ من يريد مواجهة الانحراف عليه أن يعرف طبيعته، كما فعل الملكان في تعليم الناس أساليب السحرة.

● لابدّ للمعلّم أن يحذّر المتعلمين من استعمال العلم في ﴿ما يضرّهم ولا ينفعهم﴾.

● من أكبر الأخطار التي تواجه المجتمع هي تفكيك الأسرة: ﴿يفرقون بين المرء وزوجه﴾.

● يستطيع الإنسان أن يتقي السحر حين يستعيذ بالله من شرّ الشياطين، فكل شيء بيده سبحانه: ﴿وما هم بضارّين من أحد إلاّ بإذن الله﴾.

● ممارسة الأساليب المنحرفة قد تعود على صاحبها في الدنيا بالشهرة ولكن ﴿ما له الآخرة من خَلاق﴾.

● المنحرفون عن طريق الله يبيعون أنفسهم وإنسانيتهم: ﴿لَبِئسَ ما شروا به أنفسهم﴾.

١٠٣ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾

الرسائل:

● الإيمان لابد أن يقترن بالتقوى، فالإيمان وحده ليس كافيًا: ﴿آمنوا واتقوا﴾.

● التقوى هو الحذر من كلّ ما يصدّ الإنسان على طريق الكمال. وقوله: ﴿اتقوا النار﴾ يعني اتقوا ما يوقعكم إلى الانتكاس. وقوله: ﴿اتقوا الله﴾ يعني اتقوا ما يصدّ طريقكم إلى الله.

● ذكر المثوبة بصيغة النكرة يدلّ على أن هذه المثوبة لا نهاية لها.

● جزاء ربّ العالمين خيرٌ من كلّ شيء: ﴿لمثوبة عند الله خيرٌ﴾.

١٠٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الرسائل:

● تذكر الروايات أن المؤمنين كانوا يطلبون من رسول الله أن يتأنى في كلامه كي يستوعبوه كاملاً، فيقولون له: «راعنا» أي راع حالنا وقدرتنا في استيعاب كلامك. لكنّ اللفظة (راعنا) عند اليهود كانت تعني نوعًا من السباب وتعني الرعونة، فُسُرّوا بذلك، وخاطبوا بها النبي، فنُهي المؤمنون عنها، وأمروا بأن يقولوا ﴿انظرنا﴾، أي انظر إلينا. وهذه أول آية في كتاب الله تبدأ

بمخاطبة المؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وفيها رسالة إلى المؤمنين في كل زمان ومكان تدعوهم إلى الدقة في خطابهم كي لا يكون ثغرة ينفذ منها العدوّ للطعن.

● على المؤمنين أن يكونوا على حذر شديد من مكائد العدوّ، فهو يستغل كل صغيرة وكبيرة لتوجيه ضربته.

● إذا نهينا عن ممارسة عملٍ في المجتمع فلابدّ من وضع بديل صالح له: ﴿لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾.

١٠٥ -﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

الرسائل:

● الآية تبين دور الحسد في الإعراض عن الحقّ، إذ ليس من الضروري أن يكون موقف الإعراض ناتج من قناعة عقائدية، بل للحسد دوره، وهكذا كان موقف أهل الكتاب والمشركين تجاه الرسالة المحمدية، إذ لم يكونوا راغبين نفسيًا أن يتولّى المسلمون رفع راية التوحيد: ﴿مايودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزّل عليكم من خيرٍ من ربكم﴾.

● الخير بيد الله سبحانه: ﴿خير من ربكم﴾، والحسد لا يغيّر من إرادة الله: ﴿والله يختصّ برحمتِهِ من يشاء﴾.

● فضل الله لا يختصّ بقوم أو بعنصر، بل كل الشعوب المؤهلة يشملها فضل الله: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

١٠٦ -﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الرسائل:

● طعن الكفار في النسخ وقالوا: إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم وينهى عنه غدًا، فنزلت الآية لتقول للنبي: ﴿ما ننسخ من آية﴾ نغيّر حكمها ﴿أو ننسها﴾ أي نمحها من قلبك، وفي قراءة: «نَنْسَأها» أي نؤخّر نزولها، فإننا ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾

● جاءت الشريعة لتلبّي كل متطلبات فطرة الإنسان. وحين يكون الابتعاد عن الفطرة كبيرًا، فإن المعالجة تحتاج إلى تدريج، تمامًا كما يعمل الطبيب مع المريض في تدرّج العلاج، وكما يفعل المدرس مع التلميذ لرفع مستواه.

● التدرّج في الأحكام لا يعني فشل الحكم السابق، بل يعني أنه كان مناسبًا لمرحلة معينة.

● هذا التغيير في الأحكام مظهر من مظاهر قدرة الله سبحانه: ﴿ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾.

● التدرج في معالجة الأمراض الاجتماعية والفردية من سنن الكون.

١٠٧ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾

الرسائل:

● هذه الآية تؤكد حاكمية الله سبحانه وبطلان اعتراض المعترضين ـ في الآية السابقة ـ على النسخ، فإنه سبحانه ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ وهو العليم بما يصلح للكون والحياة.

● لا قيمة للمرجفين والمعارضين تجاه رسالة التوحيد، ولا تفكّروا في إرضائهم طمعًا في أن يوالوكم ويناصروكم إذ ﴿مالكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾.

الشهيد مطهري:

يستعرض الخطاب الغربي الموجّه إلى الإيرانيين بشأن الدين الإسلامي.. وهو خطاب يزعم أن الإسلام غريب على الإيرانيين ولا يرتبط بهم لا قوميًا ولا لغويًا ولا ثقافيًا، ويردّ على ذلك في كثير من كتبه مؤكدًا على عالمية الدعوة الإسلامية وأسسها الإنسانية، ومشيرًا إلى أن المسيحية التي يعتنقها الغرب هي دعوة انبثقت من أرض فلسطين فهل يمكن اعتبارها غريبة عليهم؟!

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي

حول المفكر
الشهيد الأستاذ الشيخ
مرتضى مطهري

• المهام الملقاة على عاتقنا تجاه الشهيد مطهري: بيان الجانب الإحيائي من عمل الشهيد • استمرار تياره الفكري • استخلاص أفكاره من كتبه • تقديم شخصيته المرتبطة بالله والذائبة في الرسالة • إحياء مسيرته في مكافحة الانحرافات • بلورة آرائه في القضايا المختلفة • تنشيط حركته التي تتميز بالاتقان في فهم الإسلام وتقديمه بلغة العصر • ترجمة كتاباته ونشرها على الصعيد العالمي بلغة جذّابة. كشف مواضع الابداع والتجديد في فكره • تقديم فكرة بلغة مبسطة للناشئة والشباب.

من كلمته في لقائه أعضاء مؤتمر الحكمة المطهرة (٢٠٠٤/٣/١٧م):

... أعتقد أن المحور الرئيسي لمؤتمركم يجب **أولاً** أن يكون الشخصية الفكرية والهوية التنويرية للمرحوم مطهري ودوره في التيار الفكري والتنويري الإسلامي في البلاد، وهذا على جانب

كبير من الأهمية. **ثانيًا** يجب السعي لمواصلة هذا التيار وعدم انقطاعه لأننا نحتاج لمطهري دومًا. لا يمكن التوقف عند شخص الشهيد مطهري. ينبغي لمجتمعنا ومنظومتنا الفكرية الإسلامية أن تحقق إبداعات جديدة على أساس إبداعاته وتجديده الفكري. نحتاج أن يكون لنا أمثال مطهري في المستقبل لأن الاحتياجات الفكرية تتجدد دومًا.

حول الهوية الفكرية والتنويرية للشهيد مطهري ودور هذا الرجل الكبير في زمانه، لم يظهر لحد الآن تعريف جامع على ما أرى. أنجزت طبعًا بعض الأعمال الجيدة ترتبط بكتاباته، ولكن يجب معرفة ما قام به المرحوم الشهيد مطهري في حياته في البيئة الفكرية الإيرانية.

لقد خاض بقوته الفكرية وآرائه المتينة الصائبة في ميادين لم يكن قد خاض فيها أحد على صعيد القضايا الإسلامية حتى ذلك الحين. ودخل في تحديات علمية عميقة وواسعة ومفتوحة مع الأفكار التي شاعت أو كادت تشيع في البلاد يومذاك... الأفكار المستوردة المترجمة عن الغرب والشرق. خاض جهادًا على درجة عالية من الفطنة والذكاء في جبهة مواجهة الماركسية، وكذلك في جبهة مواجهة الأفكار الغربية والليبرالية. هذا دور مهم جدًا يحتاج إلى جرأة وثقة بالنفس، وكذلك إلى قدرات فكرية واجتهادية في الميادين المختلفة، وإلى يقين وإيمان قاطع في الوقت

نفسه؛ وقد توفرت كل هذه العناصر سوية في ذلك الرجل الكبير؛ فقد كان عالمًا، ومؤمنًا شديد الإيمان، وشخصًا متيقنًا من إيمانه، وكانت له ثقته بنفسه؛ هذه عناصر ضرورية...

أعتقد اعتقادًا راسخًا وقد قلت هذا مرارًا أن التيار الفكري الإسلامي للثورة ونظامنا الإسلامي يعتمد على أفكار الشهيد مطهري. أي إن أفكاره مثلت الأسس والأرصدة الإسلامية التي انتهلنا منها في أفكارنا الإسلامية وأفضت إلى النظام الإسلامي... النقطة الثانية التي يجدر التفكير فيها هي استمرار هذا التيار. لا يمكننا التوقف عند حدود الشهيد مطهري. صحيح أن كتبه لا تزال حتى بعد خمسة وعشرين عامًا من استشهاده من أوسع الكتب مبيعًا وأكثرها جاذبية وإقبالاً لدى الجيل الباحث عن الأفكار الإسلامية الرصينة المنطقية، وليس لدينا الآن في الحقيقة بديلاً ومثيلاً لمجموعة كتب الشهيد مطهري (رضوان الله تعالى عليه) ومع أن أعمالاً جيدة قد أنجزت، ولكن لا شك أن كتاباته لا تزال في أرقى المستويات من حيث الأهمية والتأثير والجاذبية والإتقان. لكن تيار الخوض في ساحة تحدي الأفكار الوافدة ونقدها العلمي والتعامل الصحيح معها وتفكيك الصحيح والسقيم منها وعرض الفكر الإسلامي فيما يتعلق بها، يجب أن يستمر طبعًا، وهذا من الواجبات المهمة التي تواجهنا.

وكما ذكرت فإننا بحاجة إلى نظراء لمطهري في العقود القادمة.

بعد الثورة الإسلامية وتأسيس النظام الإسلامي واجه الفكر الإسلامي تحديات جادة، وبعد هذا أيضًا سينحتون له تحديات جديدة في كل يوم. لن يقلعوا عن هذا طبعًا. علينا أن نكون على أهبة الاستعداد ونحن قادرون على ذلك. الرصيد الثر واللامتناهي الذي نمتلكه اليوم من الثقافة الإسلامية يزودنا في هذا السجال بإمكانيات كبيرة جدًا إن كنا ممن ينتفع منها. الحق أن لدينا ترسانة فكرية وثقافية هائلة إنْ استطعنا استخدامها بصورة صحيحة.

ثمة اليوم لحسن الحظ فضلاء، وعلماء، وأفراد صالحون، لديهم قدرة علمية جيدة من حيث سعة آفاقهم النظرية وقوة أفكارهم، وعليهم النزول إلى هذه الميادين وتنمية المساهمة فيها.

إن حاجتنا اليوم أكبر بكثير من الفترة التي نشط فيها المرحوم الشهيد مطهري أي عقدي الأربعينات والخمسينات. كانت حاجتنا في ذلك الحين من نوع معين، وهي اليوم أوسع وأعمق بكثير، ومن الضروري مواصلة هذا الطريق.

وجّهوا مؤتمر تكريم ذكرى الشهيد مطهري نحو تشجيع البعض للخوض في هذه المضامير والاستعداد لمواجهة الأمواج الدعائية الجديدة الوافدة في كافة الصعد؛ في صعيد الفلسفة، والكلام، وقضايا البلاد المختلفة ذات الصلة بالمباحث الإسلامية...

... على العلماء والفضلاء والشباب -خصوصًا طلبتنا الشباب - أن يكونوا قد قرأوا دورة كاملة من كتب الشهيد مطهري، حتى تكون أعمالهم إذا أرادوا العمل من قبيل «من بنى فوق بناء السلف»، أي أن يرتكزوا على أساس ذلك الفكر وعلى ما بناه الشهيد مطهري ليفتحوا قممًا أعلى إن شاء الله ويرفعوا راية الفكر الإسلامي هناك.

* * *

في لقائه بعائلة الشهيد مطهري (١٢/٤/١٩٩٤م):

... النقطة التي أود ذكرها - وقد ذكرتها سابقًا - هي أن الأفضل في هذه الذكريات السنوية التشديد على القضايا الفكرية أكثر. لو صنفنا آثار الشيخ مطهري إلى قسمين أو ثلاثة، فإن بعضها كـ «العدل الإلهي» سيكون فلسفيًا محضًا. والبعض منها يعرض المعارف الإسلامية، بمعنى أنه اختار قضايا ومعارف معينة من الإسلام وناقشها بفكره التحليلي العميق. وربما أتيح القول إن معظم أعماله من هذا القبيل. والبعض من أعماله تخصصية علمية محضة، كالعلوم الإسلامية وما شاكل من كتب وجدت طريقها للنشر. لديه في كل واحد من هذه الفروع الثلاثة - لا سيما الفرع الثاني - الكثير من الأفكار.

لو عمدنا في كل سنة من السنوات القادمة بمناسبة ذكرى استشهاد الشيخ مطهري إلى مناقشة أحد أفكاره وأعماله بشكل

نقدي، فيتم نقدها بنحو حقيقي وتذكر أدلتها ووجوهها، وتعرض جميع النقاط الدقيقة التي رمى إليها، وإذا استطاع شخص تكميلها بآرائه وإجراء أعمال نقدية لآثاره تفضي إلى تمتين نظرياته أكثر فأكثر فإن مثل هذه الحركة ستمثل مقطعًا من مقاطع العمل العلمي.

كان لي في السنوات الماضية أيضًا اقتراحات بخصوص العمل العلمي المتصل بآثاره، وربما حظيت بعض تلك الاقتراحات بالاهتمام وتحققت. لكن ما أقوله حاليًا هو أن نأتي بأفكاره إلى الساحة.

كتب كتابًا بعنوان «الإسلام ومتطلبات العصر» حول قضية على جانب كبير من الأهمية. لقد كانت هذه المجموعة المستلّة من ثلاثين محاضرة موجودة عندي لفترة من الزمن. أي إنه أعطاني تلك المحاضرات لأنظمها وأعدها ولم تتهيأ الفرصة لذلك فأعدتها إليه. ثم بادر هو أو شخص آخر لإعداد تلك المحاضرات. طبعًا لو حرر الشيخ مطهري نفسه تلك المحاضرات ولم يشرك أحدًا في مراحل الكتابة والإعداد لخرج العمل بشكل مختلف ربما، أي لكان أفضل مما هو عليه الآن. مع إننا لو نظرنا لهذا الكتاب الآن أيضًا لوجدنا فيه لباب آرائه. بمعنى أن الموضوعات والقضايا التي تنتهي إليها آراء المفكر وتقدح في الذهن بوارق الأعمال الأخرى، موجودة في هذا الكتاب. غير أن التعاطي مع الموضوعات لم يكن على غرار التعاطي في صفوف الدرس أو التعامل مع

الموضوع في منظومة حقيقية. كان تعاملاً شخصيًا حيث ألقى بعض المحاضرات ثم جمعها ودوّنها. وبوسعكم أخذ لباب الموضوع وما طرحه في هذه المحاضرات كأساس لآرائه - وهذا هو أساس القضية - وإعداده وتنظيمه وطرحه. إذا تم هذا فقد تظهر عدة كتب مفيدة وجيدة في ضوء كل واحد من كتبه...

* * *

في لقائه عائلة الشهيد مطهري (١٩٩٥/٤/١٩م):

... كان من القلائل الذين ارتبطت روحهم بعائلتهم. البعض من هذا القبيل، والبعض لا! إنهم أناس صالحون لكنهم ينقطعون. وسيفرح أكثر إن شاء الله كلما مضى الزمن لتقدمكم بوصفكم أبناءه الصالحين.

أشرتم إلى نقطة جيدة جدًا حول المرحوم مطهري. البعض حينما يخسرهم الإنسان يخسر شيئًا واحدًا. لكن البعض حينما يخسرهم يخسر عدة أشياء. وقد كان الشهيد مطهري من أولئك الذين حين خسرناه خسرنا عدة أشياء. ربما لم يعاشره معظمكم، باستثناء السيدة والبنات اللواتي كن طبعًا على ارتباط أكبر به. ربما لم تكونوا قد خالطتموه بمقدار ما خالطناه. فقدنا حين استشهد إنسانًا كفوءًا بارزًا خسرته الجمهورية الإسلامية...

الشخصية الحقيقية للشيخ مطهري هي ذلك الشخص الذي

تعود له كل تلك المفاخر. مجموعة الأفكار والسلوك والطريق والقرارات والآراء هي التي تشكل الحقائق والمفاخر.

علينا لتكريم ذكرى الشيخ مطهري إحياء هذه الحقائق وشرحها والحفاظ عليها. ولحسن الحظ فإن مراسم التكريم تأخذ هذا المنحى حاليًا.

اعملوا فيما يرتبط بكتبه وأفكاره ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً. وقد ذكرت بعض الملاحظات بهذه المناسبة في الأعوام الماضية، وطلبت النهوض بهذه المهمات. ولا يزال يلوح أن أعمالاً كثيرة يمكن القيام بها.

انظروا إلى كتب الشيخ مطهري؛ ليست متساوية جميعها فيما تحتويه من مضامين. إنها تحتوي عدة أنماط من المواضيع. وفيها مواضيع مكررة... موضوعاته فلسفية وتخصصية لها أثارها على صعيد البحوث الفلسفية. هذه أعمال علمية قيمة بعضها حوزوي وبعضها جامعي. وبعضها تتعلق بالقضايا الإسلامية، أي ما يحتاج إليه الإسلام اليوم.

قلت مرارًا إن الفكر الصاعد والشائع للثورة اليوم ليس فكر فلان وفلان بل هو فكر الشيخ مطهري. حين كان الشيخ مطهري يطلق هذا الكلام في حينه لم تكن الأذهان تستذوقه. نحن وأمثالنا كنا نقرأ أي كتاب يصدر للشيخ مطهري وننتفع منه. بيد أن الأمر لم يكن كذلك في الفهم العام، إنما كان الكلام ذو

البريق الأكبر جذابًا بالنسبة لهم أكثر. لكن ذلك الكلام تفرقع الآن كالفقاعات ولم يبق له أي أثر، بينما بقيت كلمات الشيخ مطهري تمثل الأساس القوي لهذا الصرح. كلماته وآراؤه هي أيديولوجيا هذا البناء.

ابحثوا في آراء الشيخ مطهري واستخلصوا هذه الأفكار. طبعًا هذه مهمة تحتاج إلى فكر قوي ولا يقدر عليها أي إنسان... تابعوا هذه المهمة. وقد استخلصتم لحد الآن بعض الأفكار ونشرتموها، وهذا جيد. ولكن لابد أن لديه أفكارًا أخرى يمكنكم طباعتها. بادروا حاليًا وادرسوا آراءه كمفكر إسلامي لديه محاضرتان حول التقوى. ولم يستطيع أحدٌ بعد مضي ٣٢ سنة عليها أن يتحدث عن التقوى أفضل منه؟! من هناك انطلقت بدايات شهرة الشيخ مطهري في مجال المفاهيم الاجتماعية.

* * *

في لقائه بعائلة الشهيد مطهري (١٩٩٦/٤/١٩م):

الحركة الفكرية للمرحوم الشهيد مطهري والتيار الذي أطلقه بفكره القوي، وروحه المخلصة، ونشاطه الدؤوب، لا يزال مستمرًا على مستوى القضايا الفكرية، كان يتمتع بثلاث خصائص:

الأولى كان إنسانًا قوي الفكر ومفكرًا حقيقيًا. لم يكن يتوخى من عرض الأفكار ونشرها سوى القربة إلى الله، وإشاعه

الدين، وترويج الحق، ومقارعة الباطل.

الثانية الإخلاص كان يغمره ويغمر أعماله الشخصية، الخصوصية الثانية محسوسة طبعًا. هناك من أهل الفكر، من لا يطرحون الأفكار في سبيل الله، إنما لأجل إظهار عالميتهم مثلاً، أو لإرضاء الناس، أو ليقولوا إننا فلاسفة. لكن الشهيد مطهري لم يكن كذلك. كان يطرح الأفكار في سبيل الله والإسلام. كان يتحرق حقًا، ويغلي ويطرح أفكاره. وهذه الخصوصية الثانية هي سبب بقاء أفكاره. أي إن الإخلاص يترك تأثيره، والله تعالى يبارك أي عمل يتم إنجازه بدافع الإخلاص.

الثالثة: مثابرته دون كلل أو تعب. لم يكن ليقعد ليأتوه ويطلبوا منه شيئًا. حينما لا يأتونه كان هو الذي يبادر ويقصد العمل.

كانت هذه الخصائص الثلاث موجودة فيه. والآن يمكن الشعور بالتيار الذي أطلقه بفضل هذه الخصوصيات الثلاث في الواقع الراهن للبلاد والثورة، وكلما انقضى الزمن على الثورة وابتعدنا عن بدايتها، أتسع هذا التيار وانتشر أكثر.

حينما ترمون حجرًا في الماء فإنه يحدث أمواجًا تتسع شيئًا فشيئًا. ولكن مع اتساع دائرة الموجة تتلاشى الدوائر وتبهت إلى أن تختفي تمامًا. وهذه هي حالة بعض الأمور والشخصيات والأفكار. تثير الضجيج في البداية فتتسع دوائرها، لكنها تبهت وتبهت مع

مـرور الوقـت إلى أن تنمحـي. وفي المقابـل ثمـة أمـواج تكـبر وتتسـع باستمرار مهما كانت الطريقة التي انطلقت بها، سواء بضجيج أو بـدون ضـجيج. المثل الأسمـي لهـذا النـوع الثـاني مـن الأمـواج حادثـة كـربلاء الإمـام الحسـين عليـه السـلام. كلمـا انقضـى الـزمن على بدايـة الموجـة الـتي أطلقهـا الإمـام الحسـين كـبرت حلقاتهـا وبـرزت وتحولت إلى جبل من أمواج. تكوّنت تلك الموجة بداية ضمن دائـرة محـدودة في الصـحراء. وتصـوّر الأعـداء أن الأمـر سـيبقى طـي الكتمان والنسيان، لأن كل شيء قد زال وانمحى. ولكن كلما مضى الزمن أكثر كلما اتسعت وبرزت تلك الموجة أكثر. وكـذا الحال بالنسبة لفكر الشهيد مطهري لحسن الحظ.

في زمن حياة الشهيد مطهري كانت هناك أفكار أكثر بريقًا وبهرجة من أفكاره. أفكار جذابة جدًا. وربما كانت بعض تلك الأفكار جيدة حقًا. أي لا يتسنى القول إنها جميعًا كانت أفكارًا خاطئة. بعضها كان صحيحًا والبعض غير صحيح. لكنها كانت ذات تـأثير آنـي. ومـع أن دائرتهـا كانـت واسـعة لكنهـا لم تكـن أفكـارًا خالـدة.. كانـت أفكـارًا خاصـة بفـترة معينـة تمـلأ الفـراغ لبرهة زمنية خاصة. لم تكن أفكـارًا تبقـى كتيـار متجـدد. لكـن فكـر الشهيد مطهري بقي كتيـار يتنـامى يومًا بعـد يـوم. وكـذلك هـو اليـوم والحمـد لله. حينمـا أنظـر في الإذاعـة والتلفزيـون وعلـى مسـتوى المجتمـع وفي كتبـه، أرى أن أفكـاره تتـألق باضـطراد.

وعليكم متابعة المهمة التي توليتموها لنشر أفكاره وأعماله كمسؤولية وكواجب حتمي.

* * *

في لقائه عائلة الشهيد مطهري (١٩٩٧/٤/١٦م):

... تكريم الشيخ مطهري مشروع جيد.. وهذا ببركة الشهادة طبعًا. انظروا ماذا تفعل هذه الدماء فلا تدع أفكاره تبلى أبدًا. ربما كان هذا أحد تأويلات الآية: ﴿بل أحياء﴾. الشيخ مطهري حي فعلاً.

ينبغي انتهاز هذه الفرصة بشكل كبير. الشيخ مطهري ممثل تيار وفكر معين. تيار سليم قوي جيد حيال تلك المعارضات والشجارات والاشتباكات التي ما تزال موجودة إلى اليوم. أي لو كان الشيخ مطهري حيًا اليوم لوقف طبعًا بوجه هذه الظواهر. لذا يجب أن يكون تكريمه ذا محتوى ثر جدًا. إنه تيار يجب أن يموِّن الأذهان. حبذا لو قام عدد من أصحاب الأفكار النيرة في كل سنة باختيار موضوع من آثار الشيخ مطهري (مثل التحريفات في حادثة عاشوراء مثلاً) واستخراج كل الإشارات والمواد الخاصة بهذا الموضوع من جميع أعماله، فسوف نقترب من هذا الهدف. أو مكافحة التأويلات الخاطئة على سبيل المثال وهي من الإنجازات الأساسية والحساسة للمرحوم الشيخ مطهري، فلقد شن كفاحًا طويلاً ضد التأويلات الخاطئة للقرآن الكريم حتى لا يؤوِّل أحد

الآيـات والأحكـام القرآنيـة طبقًـا لآرائـه الفلسـفية والسياسـية الخاصة. وقد استشهد من أجل هذا تحديدًا، فالجماعة التي قتلته إنما فعلت ذلك بسبب هذه النقطة.

ليختـاروا موضـوعًا في كـل عـام ثـم يكتبـوا عنـه. لا أقـول ليجمعوا البحوث والدراسات من ذا وذاك. لا، لينتجوا هم أنفسهم أو يستخرجوا الموضوعات من أعماله.

الأفضـل مـن جمـع النصـوص بلـورة النصـوص. فتـارة قـد نطبـع *أسفار* الملا صدرا أو الكتب الفلسفية للملا صدرا، وتارة يكون الإنسان متمكنًا من الكتب الفلسفية للملا صدرا فيبادر لتبيين وشرح فلسفة الملا صدرا ويسوق الشواهد والأدلة من كل كتبه *الأسفار وشواهد الربوبية والمبدأ والمعاد*.. فهنا قال كذا، وهنا قال كذا، وهناك قال كذا، وهذه المسألة لها شاهدها في كتابه الفلاني، وهنا تعارض حسب الظاهر مع النص الفلاني، وهذا هو حل التعارض... هذا في الحقيقة شرح لفلسفة الملا صدرا وآرائه. جدير بمن يتصدى لافكار المرحوم الشهيد مطهري أن يستخرج الأفكار من مظانها المختلفة ويصدر كتابًا أو كتيبًا مفصلاً أو مجملاً. أحيانًا قد لا يكون له آراء مسهبة حول قضية معينة. بخصوص القضايا الاقتصادية مثلاً لم يطرح الكثير من الأفكار. وبالإمكان أن يبادر شخص لبلورة آرائه حول قضية رأس المال والعمل و... يتم اختيار موضوع أو موضوعين في كل سنة. وبالمقدور

النهوض بأعمال أخرى على الهامش، لتكن هذه هدية لجنة متابعة أفكار الشهيد أو عائلة الشيخ مطهري بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة. ويكون العمل متقنًا إلى درجة لا يستطيع معها أحد القول: «كلا، لم يكن هذا رأي الشيخ مطهري، لأنه قال كذا في الموضع الفلاني». أي يجب دراسة كافة جوانب الموضوع بشكل حقيقي. إذا استطعتم القيام بهذا فسيكون عملاً جيدًا جدًا حسب رأيي.

ربما أمكن رصد مائة موضوع رئيسي (غير الفرعيات) في أعمال الشيخ مطهري، تتعلق بالقضايا الاجتماعية، والعقيدية، والفرعية، والعملية، والتاريخية، والاجتماعية، والسياسية إنها مادة خام لزمن طويل. لكن ينبغي أن تكون الأعمال رصينة ومتقنة إن شخصية الشيخ مطهري يمكن أن تستخلص من هذه الأعمال. وقد تكون خيرات هذه الأعمال وبركاتها أكبر حتى من كتابات الشيخ مطهري نفسها.

ربما تحدث الشيخ مطهري حول قضية معينة في عشرة مواضع بمناسبة أو بدون مناسبة، ينبغي للمرء أن يقرأ حتى يجد تلك المواضع العشرة؟! الكثير من هذه الأعمال محاضرات وقد يتذكر أثناء المحاضرة شيئًا فيذكره. وقد تكون بلا مناسبة.

* * *

في لقائه عائلة الشهيد مطهري ٧ (١٩٩٨/٤/٢٠م):

أعتقد أن موضوع الشيخ مطهري رضوان الله عليه من الموضوعات التي لا يزال ثمة وقت ومجال للخوض والبحث فيها والاستفادة منها. ما تم إنجازه خلال هذه الأعوام إنما هو جزء يسير من ذلك الفيض الهائل الذي يمكن انتهاله من هذا المصدر الزخار العظيم لشخصيته العلمية والروحية. من هذه الأعمال إقامة المؤتمر. إنها فكرة جيدة جدًا؛ حسن جدًا ما فعلتم؛ أنا أحب مثل هذه المشاريع جدًا. علينا كما أشرتم تعريف الشيخ مطهري للعالم وخصوصًا العالم الإسلامي، فما الأمور التي ينبغي لنا التشديد عليها في هذا التعريف؟ أعتقد أن البحث في هذه المسألة يمثل أهم أعمالكم. بعض أبعاد الشخصية قد تكون خاصة يجب التشديد عليها، أو بارزة جدًا ينبغي أيضًا التشديد عليها. ثمة الكثير من هذه النماذج في حياة المرحوم آية الله الشهيد مطهري وفي شخصيته وهويته العلمية. حينما أنظر الآن أجد هناك مسائل مهمة جدًا. في ضوء معرفتي به منذ فترة الشباب وحتى استشهاده، ومعرفتي بآثاره وكتاباته إلى اليوم، لو فكّرت أكثر فستخطر على بالي أمور أكثر بلا شك. من الأمور التي أعتقد أنها تحتل المرتبة الأولى من الأهمية: التفسير الحديث للمعارف الإسلامية. هذا بمعزل عن الجانب الفلسفي وبراهينه المتينة القوية على هامش كتاب *أصول الفلسفة* للمرحوم آية الله الطباطبائي. هذه نقطة أخرى. لقد عرض المفاهيم والمعارف الإسلامية بلغة وبيان جديد

كانت الحاجة إليه ماسة جدًا. لا أقول إن الإنسان إذا دقق وتأمل في أعمال الماضين لما استطاع تحري مثل هذا التفسير. إذا دقق الإنسان فعلاً في روايات العلماء القدماء وكلماتهم فقد يجد بعض النقاط الرئيسية أو رؤوس النقاط. ولكن أريد القول إن أحدًا لم يكن قد فعل هذا. في حدود علمنا، لم يكن أحد قد فعل ذلك قبل الشيخ مطهري رضوان الله عليه. حتى كتاب الصحوة الذي ظهروا مؤخرًا في البلدان العربية -وكنا نعرف بعضهم - لم يفعلوا ذلك. الكتاب المصريون وغيرهم ممن كتبوا وكانوا كتاب صحوة وأصحاب آفاق ورؤى أوسع وعلى معرفة بالعالم أكبر قليلاً من معرفة المرحوم الشيخ مطهري، إذ غالبًا ما يسافرون ويطلعون على وضع الجامعات المختلفة، أما هو فقد كان مقيدًا، أي إنه كان داخل إيران وطهران، لكن رؤيته العميقة للقضايا الإسلامية وفهمه الجديد للآيات والروايات كان برأيي من أبرز أبعاد شخصيته. كان أول من عرض القضايا ذات الصلة بأصول العقيدة، والتقوى، والصبر، والحب، والمروءة، والعدل و... الخ بنحو متقن في المناخ الفكري الإيراني. طبعًا كان هناك آخرون، ينبغي عدم إنكار جهود الآخرين في مثل هذه القضايا، ولكن لأنهم لم يكونوا مطلعين على الفقاهة بمعناها الصحيح، وهي أسلوب ومنهج فهم القرآن والحديث برزت الكثير من الأخطاء في آرائهم.

لاحظتم أن المرحوم الشيخ مطهري يشير إلى بعض ما قيل في

المجلد الخامس من *أصول الفلسفة* على ما أظن. وله عبارة جد طريفة لا أتذكرها الآن تحديدًا. مضمونها أن هؤلاء الأشخاص أرادوا فهم هذه المسألة ببساطتهم وخلوصهم، ولكن تلاحظ الكثير من الأخطاء في آرائهم تصل بعضها إلى حد الانحراف.

الإتقان الذي نجده لدى هذا الشهيد الجليل في فهم هذه المعارف وشرحها الصحيح ليس له نظير بلا شك. هذه نقطة مميزة أعتقد أنها تستحق المتابعة والبحث وآثاره زاخرة بعلامات دالة عليها.

البعد الآخر الذي كان في شخصيته هو أنه كان يتحلى بتبحر وتمرس في فهم حاجات العصر الفكرية، وكان يطرح كل شيء في موضعه كأساس فكري.

قلت ذات مرة إن نظام الجمهورية الإسلامية أقيم على أساس تفكير وتصورات إسلامية قدمها الشيخ مطهري. طبعًا كان ثمة في ذلك الزمن جملة من الأفكار الجيدة البراقة الجميلة.. وكانت كلها جيدة؛ كانت خاصة بذلك الزمن؛ أشياء نفعت لذلك الوقت وتركت تأثيراتها وجزى الله أصحابها خيرًا إن شاء الله، ولكن ما كان يمكن أن يمثل من الناحية أساسًا لنظام إسلامي هو ما قام به الشهيد مطهري، ومرد ذلك إلى إدراكه وتشخصيه الصحيح للوضع داخل البلاد.

أريد أن أقول لكم إن العالم أيضًا لا يزال يعيش نفس تلك

الظروف. أي إن العالم الغربي اليوم يعيش تحديدًا ذات الظروف التي تستطيع معها الرسالة المعنوية أن تجتذبه إليها بقوة. وبإمكان تلك الرسالة المعنوية أن تكون رسالة الشهيد مطهري. وأقصد هنا جانبها القرآني والحديثي والمعرفي. أما الجوانب الفلسفية فلها مجالها الخاص. إذا نشرتم أعماله .. محاضراته العرفانية والمعنوية بترجمة ومراجعة جيدة في أوربا وأمريكا فسوف تستقطب إليها قلوب الكثيرين وسينجذب إليها كثير من الناس. أي إن الناس اليوم متعطشون لهذا الكلام.

* * *

في لقائه بعائلة الشهيد مطهري (٢١/٤/٢٠٠٠م):

ما أفضل من أن يكون التعليم تراثكم؟ لقد كان الشهيد مطهري معلمًا بحق. بمعنى أن تعليمه لم يقتصر على حدود الصف. لقد كان بحق معلمًا لعامة المجتمع وله بذلك حق كبير على الجميع.

نشكر الله على أن اسم الشيخ مطهري لم يُنس في مجتمعنا وفي المناخ الذهني لبلادنا، إنما راح يبرز ويتنامى يومًا بعد يوم. النَسْخُ طبيعةُ كثير من ظواهر العالم، فهي تبلى وتخلق كلما مر عليها الزمن. هكذا هي معظم ظواهر العالم. وبعض الظواهر لا تبلى مع مرور الوقت أبدًا، بل على العكس تتألق وتبرز وتسطع وتؤثر أكثر فأكثر. هكذا هي عادة الظواهر المرتكزة إلى

الحقيقة. كتاب الله المظهر التام لهذه السمة إذ يزداد جلاءً كلما مضى عليه الزمن. نصوص النبي وأئمة الدين وربما المفاهيم المنقولة عن أولئك الأجلاء لم تفهم بشكل صحيح في العهود الأولى، ثم عرف الناس قدرها في فترات لاحقة: «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه». قد يحمل الإنسان فقهًا وفهمًا للدين فيلقيه ويودعه عند من هو أفقه منه وأوعى. قد تكون هناك رواية يعرفها شخص واحد فيجريها على لسانه في محفل يكون فيه بين المستمعين شخص على مستوى من المعرفة يؤهله لأن يفهم من تلك الرواية نقطةً لم يفهمها القائل نفسه. حامل الفقه هذا يوصل الفقه إلى ذلك المستمع، بيد أن المستمع أفقه منه ويفهم المنقول بصورة أفضل.

كلمات العظماء والأئمة عليهم السلام من هذا القبيل. وأشعر بوضوح أن أفكار المرحوم آية الله الشهيد مطهري أيضًا من هذا القبيل والحمد لله. أي كان لهذه الكلمات يوم ألقيت على مجموعة من الناس وقع وقيمة، ولكن حتى تلك المجموعة المحدودة، التي لم تكن كبيرة جدًا قياسًا إلى سكان إيران، لم تدرك عمق وأهمية هذه البحوث بالشكل الذي حصل لاحقًا وفي يومنا هذا. مثلاً، أثار حول أسباب الميل إلى المادية، وفي معنى القضاء والقدر، وحول الكثير من مفاهيم الكلام الإسلامي الجديد آراءً حينما ننظر لبيئتنا الاجتماعية اليوم نرى أنها تمثل

إجابات للأسئلة المطروحة حاليًا. ربما لم تكن بعض هذه الأسئلة شائعة يوم طرحها كما هي الآن، لكنه بفكره العميق ونظرته الحاذقة البعيدة استوعب هذه الاستفهامات وأجاب عنها بنحو وافٍ. أحيانًا يطرح البعض سؤالاً ويجيبون عنه بشكل ناقص فيوجهون ضربة للحقيقة. غير أن هذا المفكر العميق لم يخض في مسألة دون أن يشرحها ويبيّنها بشكل وافٍ. طبعًا هناك مسائل غير موجودة في كتبه المطبوعة، وقد نراها في أعماله المستقبلية حين تطبع.

النقطة التي أكدت عليها دومًا بخصوص الشيخ مطهري هو إبداعه وتجديده وكلامه وأفكاره غير المسبوقة. والواقع أن آثاره تستحق أن تبقى وتتجلى يومًا بعد يوم. ولهذا، ينبغي أن نشكر ذويه المحترمين الذين أدركوا جيدًا قدر عظمته المعنوية والفكرية وصانوها وحفظوها. وبتعبير آخر لم يعطوها رخيصة بيد هذا وذاك فحفظوا مكانة الشيخ مطهري. أنا سعيد جدًا لأني أرى أقرباءه وتلامذته استطاعوا والحمد لله حفظ تلك المكانة والمنزلة المعنوية التي التزم بها الشيخ مطهري أشد الالتزام...

النقطة الثانية التي اقترحتها على أولئك الأصدقاء هي أني قلت لهم: عملية التبسيط في العالم وصلت اليوم إلى درجة كتابة الفلسفة للأطفال. ثمة في العالم اليوم مؤسسات تضع كتبًا في الفلسفة للأطفال. قد يتساءل الإنسان وما الذي يمكن لطفل في

الأول أو الثاني ابتدائي أن يفهمه من الفلسفة؟! هذا هو التصور الأولي وهو ليس تصورًا صائبًا بالضرورة. نعم، حتى الطفل الصغير بوسعه أن يفهم شيئًا من الفلسفة ويتخذ ذهنه شكلاً فلسفيًا! هذه عملية قيمة جدًا أعتقد أنها يجب أن تولى الاهتمام اللازم. طبعًا قد لا تتأتى النتيجة خلال سنة أو سنتين، ولكن إذا اجتمع عدد من أصحاب الفكر المتمكنين من آثار الشيخ مطهري، خصوصًا إذا كانوا شبابًا متوثبين، فسيستطيعون بالتأكيد النهوض بهذه المهمة. هذا اقتراح وطلب ذكرته للسادة في اللجنة. ولا أدري هل سيستطيعون متابعته أم لا؟ لكنه على كل حال أمر مشروط بأن تستطيعوا تبسيط الفكرة الفلسفية لتغدو في مستوى ذهنية الأطفال. لو أردنا طرح الفلسفة على شاب يدرس في الثانوية فقد نطرحها بشكل سيئ وغير ناضج بحيث يخرج ذلك الشاب بانطباع سلبي عن الفلسفة. الشيء المطروح الآن صحيح، لكنه لا يناسب فكر الإنسان الشاب. علينا إعداد الفلسفة بحيث يفهمها الطالب الجامعي وطالب الثانوية وحتى الطفل. إنها المفاهيم ذاتها ولكن بمستوى مبسط ومصغّر، تمامًا كالقرآن الكريم. مفاهيم القرآن الكريم سامقة جدًا، ينزلها الله تعالى على قدر قلب الرسول، فيدركها قلب الرسول لتدركها بعد ذلك فهوم البشر على قدر استيعابها. ينبغي اكتساب العلم الخاص بهذه العملية من الضالعين فيه. إذا استطعتم تبديل كتاب *الدوافع نحو المادية* وهو

كتاب فلسفي متوسط أو شبه فلسفي وضع لمن هم في مراتب فكرية عالية، إذا استطعتم تبديله إلى كتاب يفهمه الشاب اليافع فإنه لن يميل إلى النزعات المادية. إنها في الحقيقة عملية تلقيح ضد المادية.

طيب، إذا حصلت هذه الحالة عند طفل أو فتاة أو صبي يافع فانظروا كم سيكون هذا الأمر مهمًا! إذا خرجت إنجازاتكم جيدة فستستطيعون نثر بذور الهداية في أذهان الآلآف من الناس. أو بخصوص كتاب *الإنسان والمصير* مثلاً؛ لاحظوا كم من الأحاديث تطرح في القصص العامية، وقصص الأطفال، والأمثال، والحوارات بين الآباء والأمهات والأطفال والأجداد مما يمكن أن يرسم في الأذهان تصورات خاصة حول القضاء والقدر! كأن يقال: «هذا هو المقسوم على كل حال؛ ما بوسعنا أن نفعل» الكلام اليومي الدارج يرسم صورة للقضاء والقدر في ذهن الطفل. الطفل لم يسمع بشيء بعد عن القضاء والقدر ولا يعلم الفرق بينهما، ولا يدري ما هو دور القضاء والقدر في الخلقة أساسًا، لكنه يشعر به عبر تصوره لعبارة «هذا هو المقسوم» التي نجريها على ألسنتنا. فإذا استطعتم التعبير عن مفهوم القضاء والقدر كما يفهمه الشيخ مطهري بلغة يدركها الطفل، على شكل قصة أو حديث عادي، فانظروا كم سيكون لعملكم من قيمة! إنكم في الواقع تعدون ذهنه لتلقي المعارف الحقة. ولن يمكن زعزعة

هـذا الـذهن في وقـت لاحـق، فـلا تـؤثر فيـه عمليـات التضـليل والإضـلال. هـذه العمليـة مهمـة إلى هـذا الحـد. أعتقـد أن بالمقـدور القيام بهذه العملية فيما يتصل بكثير من الكتب والأفكـار، بيد أن مجموعـة آثـار الشـيخ مطهـري اليـوم مـن المجـاميع الجـديرة جـدًا بهذا المعنى والقمينة بأن ترصد لها مثل هذه الجهود.

الشهيد مطهري:

في كتابه *نظرات في نهج البلاغة* يركز على موقف علي(ع) من وحدة الأمة، وما قدمه على هذا الطريق من تضحيات. ولا بأس أن ننقل عنه عبارة تنبئ عن مواجهة في عصـره بـين التقـريبيين الإحيـائيين والمفـرقين المتحجرين يقول:

«علـي أصـبح فـداء للوحـدة الإسـلامية، أيُّ شـخصٍ كـانِ بقَـدرَ علـي في احـترام الوحـدة؟ الآخـرون كـانوا يقطعون وهو كان يوصل.

(من المؤسف) أن رجلاً اليوم يصعد المنبر ليقول: (كنت بحمد الله منذ بداية حياتي معارضًا للوحدة الإسـلامية) لا كثـر الله مـن أمثالـك في هـذا المجتمـع يـا رجـل!! ألم تسـمع قولـه تعـالى ..." ثـم يـذكر الآيـات الداعيـة إلى الوحدة ونبذ الاختلاف.

المطهري والصدر والإحياء الديني

محمد علي التسخيري*

● كان بين الشهيدين مطهري والصدر شبه كبير في كثير من الخصائص ● في عملية (التجديد) ثمة اتجاهات صحيحة وأخرى منحرفة ● تقارب الشهادتين والتنظير والموسوعية من ساحات التقاء الصدر ومطهري • العمل في سبيل الوحدة الإسلامية من مختصات الشهيدين.

يمكن تلخيص الموضوع في نقاط:

النقطة الاولى:

قبل الحديث عن الموضوع اود أن أذكر أني وفقت للاستفادة من أساتذة كبار وعلماء أفذاذ ولكن استاذين جليلين منهم تركا أكبر الأثر في حياتي العلمية والفكرية بل والروحية وهما المرحوم الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر والمرحوم آية الله الشهيد المطهري.

* - الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

ولقد كانا شبيهين إلى حد بعيد في كثير من الخصائص ومنها:

- تقارب الشهادتين.
- الجهاد حتى آخر نفس وعن وعي.
- التنظير والانتقال من المفردة إلى القانون.
- الموسوعية والتأليف في مختلف الجوانب.
- العمق والاستدلال المتين.
- الاهتمام الجاد بالفلسفة الإسلامية وعرضها بشكل واضح وبناء.
- التضلع في الفقه.
- التعبد العرفاني.
- الولاء لأهل البيت (ع).
- الاهتمام بقضايا الأمة الفكرية والعملية.
- الصحوة الإسلامية العالمية.
- الاصلاح الحوزوي في النجف وقم.
- التخطيط المستقبلي لبناء المجتمع الإسلامي المطلوب.
- الخلق والتواضع الكامل وخصوصًا للعلم والعلماء.
- العمل في سبيل الوحدة الإسلامية.
- حب ودعم الثورة الإسلامية والامام الخميني الراحل (قدس) وغير ذلك.

- الوقوف بوجه الأفكار اليسارية واليمينية والهجينة ورد عاديتها.

- إقامة الجسور مع المفكرين والشباب والجامعات وتغذيتهم بالثقافة الإسلامية الأصيلة.

- التجديد في الفكر الديني.

النقطة الثانية:

الخطوط الأساسية لدى المرحوم المطهري لعملية تحقيق التجديد الديني

ويمكن تلخيص هدف العملية في أمرين:

١ـ اكتشاف النظرة الأصيلة للدين في مجمل قضايا الحياة.

٢ـ استبعاد الرواسب الدخيلة نتيجة العادات والتقاليد، والبعد الزمني عن عصر النص، والفهم الخاطئ وغير ذلك. وكان يطرح جملة الامام امير المؤمنين: «ولبس الإسلام لُبس الفرد مقلوبًا».

وقد رسم لتحقيق ذلك خطوطًا كثيرة منها:

١ـ التأكيد على قدسية الوحي والنص الديني، وفتح المجال امام نقد الفكر المبتني عليه.

٢ـ التركيز على العقل والبرهنة الصدرائية والتجديد في علم الكلام والربط بين العقل والعلم والدين مع تحديد مجال كل منها.

٣ـ التأكيد على فلسفة العلوم، والأخلاق والتاريخ والعلاقات الاجتماعية، بل وفلسفة أصل الاتجاه الديني.

٤ـ التأكيد على العودة للمصادر الأصيلة.

٥ـ تفعيل عملية الاجتهاد في كل النواحي، وتخليصه من ضيق الأفق، وإعطائه المرونة اللازمة.

٦ـ التأكيد على الهدف الإنساني للشريعة، والحكمة العملية والعدالة الاجتماعية، والحرية الإنسانية، والاجتماعية والمعنوية وحقوق الإنسان والفطرة وغير ذلك.

٧ـ التأكيد على التمييز بين المتغير والثابت، وبين رؤية الإسلام وسلوك المسلمين.

٨ ـ التأكيد على اصلاح التعليم الديني والارتقاء بالحوزات العلمية.

٩ـ التأكيد على شمولية الإحياء لمختلف العلوم الإسلامية.

١٠ـ التأكيد على تحسيس المجتمع بالسلوكات الضارة، والأفكار الدخيلة، والشعارات الباطلة، والتفاسير القشرية للإسلام او التسطيحية للفكر الإسلامي.

١١ـ مناقشة الأفكار والاتجاهات اللاإسلامية من قبيل: القومية الضيقة، الاتجاهات اليسارية، الاتجاهات الالتقاطية التركيبية الغريبة، والمناهج المتأثرة بالفلسفات الغربية والحداثة وأمثالها.

١٢ـ التخطيط لإقامة الجسور بين الدراسات الدينية التقليدية والدراسات الجامعية، ونقل إيجابيات كل منهما للآخر.

١٣ـ الانفتاح على الأفكار المطروحة، وبناء عملية حوارية منطقية معها لاكتشاف المشتركات والإفادة من التجارب الفكرية.

١٤ـ تعميق قضية الوحدة الإسلامية والاهتمام بقضايا الأمة المصيرية كقضية فلسطين، ودفع العلماء للقيام بدورهم كورثة للأنبياء.

النقطة الثالثة:

ما المقصود بعملية التجديد في الفكر الديني؟

يجب أن نستبعد بعض المعاني المرفوضة من قبيل:

١ـ جعل ما يسمى بالحداثة او المعاصرة او القيم الغربية المطروحة اليوم أصلاً ثاتبًا ثم العمل على تغيير التصور الإسلامي الثابت لينسجم معها، أو لوي النصوص الإسلامية الأصيلة لتحقيق هذا الهدف.

٢ـ اتباع المنهج الهرمنوطيقي في فهم النصوص ورفض كل التراث الأصولي القائم على أسس ثابتة بالعقل والنقل وربما شابه هذا الاسلوب ما سمي سابقاً بـ (ما يستحسنه المجتهد دونما دليل) بل هو أسوأ منه لأنه يعطي هذه الصفة للمجتهد وغيره.

٣ـ الخلط بين مراتب الأدلة لتحقيق هدف مسبق مع ان بعض

الأدلة مقدم رتبة على غيره.

٤ـ التلفيق بين الفتاوى بشكل يؤدي للتلاعب بمقاصد الشريعة الثابتة.

٥ـ رفض كل التراث السابق للعلماء مع أنه من المعقول على الأقل الاستئناس به والإفادة من النتائج العلمية.

أما المعاني الأيجابية فيمكن أن نذكر منها ما يلي:

١ـ تغير الأحكام بتغير الموضوعات.

٢ـ استنباط رأي الإسلام في الموضوعات المستحدثة او الافكار الحديثة كالتعددية والديمقراطية او حتى بعض النظريات العلمية.

٣ـ المرونة في تطبيق الإسلام.

٤ـ التصرف الأفضل للحاكم الشرعي في منطقة المباحات او حتى التكليفيات وفقاً للمصلحة.

٥ـ مراعاة مقاصد الشريعة الكبرى و العدالة والحق والاتجاه الإنساني في الشريعة.

٦ـ مناقشة بعض المسلمات كالاجماعات المعللة وتوجيه النقد للفكر الديني الإسلامي.

٧ـ التفريق بين ما صدر عن المعصوم كإمام وما صدر عنه كحكم شرعي عام.

٨ـ ملاحظة الترابط بين الأحكام وعدم التركيز على البعض دون ملاحظة الآخر والنظر للإسلام كأطروحة.

٩ـ التأكد من عدم تدخل الشروط النفسية والزمكانية عند النقل بالمعنى، والتأكد من عدم وجود قرائن صارفة، وملاحظة دور الزمان والمكان في الأحكام.

١٠ـ اعمال الذوق الشرعي المسلم به والمعتمد على الأدلة الأخرى في ترجيح النصوص.

١١ـ تأويل النص إذا خالف عقلاً أو إجماعًا أو سيرة قطعية معتبرة.

١٢ـ ملاحظة أقسام الأحكام الأولية والثانوية والسلطانية وتقديم ما حقه التقديم. وغير ذلك.

الشهيد مطهري يقول:

«العشق بغضّ النظر عن نوعه أهو غريزي أم روحي يُخرج الانسان من دائرة ذاتياته. الذاتية سجن وحصار، وعشق الغير يكسر هذا الحصار.

الإنسان القابع في ذاته الذي لا يحمل مشاعر حبّ لغيره إنما هو إنسان جبان نحيل متكبر قاسي القلب مغرور ليس في روحه أية إضاءة ولمعان. وإذا دخل العشق يغيّر جوهر الإنسان ويجعله فردًا رقيقًا ذكيًا وثّابًا، كما يقول المولوي:

از محبت تلخها شيرين شود از محبت مسها زرين شود

أي: من المحبّة يصبح كل مرّ حلوًا/ ومن المحبّة يصبح النحاس ذهبًا.

الشهيد مطهري

يقف عند كتاب إقبال بشأن

احياء الفكر الديني

• مطهري تحرّك أولاً على طريق تصحيح الأفكار الخاطئة • ممن تعرض للتجديد العلامة المودودي • المودودي يرى المهدي المنتظر هو المجدّد الكامل في الإسلام • مطهري اشار إلى هفوات إقبال إلى جانب شرحه لنظرات إقبال التجديدية.

لإن كانت قيمة مقالات «رسالتنا»[1] تتمثل بالدرجة الأولى في تعبيرها عن مرحلة معينة من مراحل العمل الإسلامي في العراق، فإنّ وقوف الشهيد مطهري عند كتاب إقبال اللاهوري بشأن احياء الفكر الديني في كتابه *احياء الفكر في الاسلام* يمثل أيضًا مرحلة من مراحل العمل الإسلامي في إيران.

الشهيد مطهّري، مثل أغلب المصلحين في عالمنا الإسلامي المعاصر، تحرك أوّل ما تحرّك على طريق تغيير المفاهيم الخاطئة السائدة. واجه أفكارًا منحرفة ومفاهيم مغلوطة تتجه نحو تثبيط

١ - سلسلة مقالات كتبها الشهيد محمد باقر الصدر في مجلة «الأضواء» النجفية في بداية الصحوة الإسلامية في العراق بعد انقلاب تموز عام ١٩٥٨.

العـزائم وتجميـد الهمـم وصـدّ التحـرك الاجتمـاعي. ووجـد أن مسؤوليته الإسلامية تفرض عليه أولاً تغيير هذه الأفكار والمفاهيم المنحرفة، وتقديم المفاهيم الإسلامية الصحيحة للمجتمع.

وهنا لابد من التأكيد على أن الشهيد مطهّري كان يرى في عملية تغيير المفاهيم الخاطئة ونشر الأفكار والمفاهيم الإسلامية الصحيحة مقدمة لتغيير المجتمع، وإقامة حكم الله في الأرض. ولا أدلّ على ذلك من انضوائه تحت لواء الإمام الخميني منذ انتفاضته الأولى بوجه طاغوت إيران عام ١٩٦٢م مما أدّى إلى اعتقاله. كما أن دوره الكبير في انتصار الثورة الإسلامية، وما بعد الانتصار في مجلس قياد الثورة، يدلّ على الخط الفكري النهضوي للشهيد مطهّري.

الحديث عن كتاب إقبال يثير مسألتين: الأولى مسألة الإحياء، والأخرى هفوات إقبال في فهم هذه المسألة.

أما بشأن المسألة الأولى، فالإحياء كلمة عربية استعملت في اللغة الفارسية أيضا لتعني إثارة صحوة جديدة وتحرك جديد في الدين. وفي اللغة العربية استعملت مكانها غالبًا كلمة «التجديد».

مسألة التجديد راجت في عصرنا الأخير واتسع نطاقها، وأضحى المهزومون أمام ثقافة الغزاة الأوربيين يطلقون على أنفسهم اسم مجدّدين، كما أن بعض التافهين راحوا يدبجون الفتاوى الغريبة ويسلكون السبل الشاذة ليكونوا في عداد المجدّدين.

وممّن تعرّض لمسألة التجديد الديني الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتاب موجز *تاريخ تجديد الدين وإحيائه*. والكتاب

على إيجازه يضم دراسة واعية أصيلة عن التجديد والمجددين.

يضع المودودي للمجدّد شروطًا هي:

١ـ تشخيص أمراض البيئة التي يعيش فيها المجدّد تشخيصًا صحيحًا..

٢ - تدبير الإصلاح، وبعبارة أخرى تعيين مواضع الفساد التي يجب أن تعالج بالضرب والشذب في الوقت الحاضر..

٣ - اختبارُ المجدّد نفسه وتعيينُه حدودَ عمله، وتقديره قوته ومقدرته..

٤ - السعي لإحداث الانقلاب الفكري والنظري..

٥ - محاولة الإصلاح العلمي..

٦ - الاجتهاد في الدين..

٧ - الكفاح والدفاع..

٨ - إحياء النظام الإسلامي..

٩ - السعي لإحداث الانقلاب العالمي..(ص ٣٣٣ -٣٤).

المجدد الجزئي والكامل

يوضح المودودي أن المجدد اليوم لا يستطيع أن ينهض بكل المهام المذكورة بل «إن الشُّعب الثلاث المتقدمة منها، لا محيص منها لأحد يقوم بمهمة التجديد، ولكن الشُّعب الست الباقية لا يشترط للمجدد أن يستوفي جميعها، وإنما يصح أن نعدّ مجددًا كل من يأتي بعمل جليل في إحدى تلك الشعب أو الاثنتين أو الثلاث أو الأربع، إلا أن مثل هذا المجدد لا يقال له مجددًا كاملاً

بل يعرف بمجدّد جزئي.. [1] (ص ٣٥).

أما المجدد الكامل الذي يستوفي جميع الشروط المذكورة فيعتقد المودودي أن موضعه غير مشغول بعد. ثم يقول:

«لكن العقل والطبيعة وسير الأحوال، كل ذلك يقتضي ويتطلب أن يظهر مثل هذا الزعيم فيجدد الدين في شعبه وفي جميع نواحيه، سواء كان ظهوره في هذا الزمان أو بعد ألف دورة من دورات الحدثان. ذلك الزعيم الذي يعرف بالإمام المهدي، والذي جاء الحديث النبوي بنبوآت، واضحة فيه [2].

هذا ما يرتبط بالإحياء أو التجديد، أما بشأن هفوات إقبال في فهم هذه المسألة، فقد أوضحها الأستاذ مطهري في كتاب = *الحركات الإسلامية في القرن الأخير*، وهذه ترجمة توضيحه: «النقص الأساس في عمل إقبال يتمثل في جانبين:

الأول: عدم فهمه العميق للثقافة الإسلامية، فمع أنه في المفهوم الغربي فيلسوف حقًا، فهو لم يفهم الفلسفة الإسلامية فهمًا صحيحًا.

---

١ - نفس المصدر، ص ٣٥، ٣٤، ويلاحظ أن الشروط التي يضعها المودودي للمجدد الجزئي، تقترب كثيرًا من الشروط التي يضعها الإمام الخميني للولي الفقيه، ومن الصفات التي يحددها الشهيد الصدر للمرجع الشاهد، راجع الحكومة الإسلامية للإمام الخميني، وخلافة الإنسان وشهادة الأنبياء للشهيد الصدر..

٢ - هذا الفهم الواعي لمستقبل الإسلام، ولظهور المصلح العالمي الأكبر المتمثل في المهدي من آل محمد انعكس في دستور الجمهورية الإسلامية، بعد أن حدد الدستور صفات ولي الأمر المؤهل لتولّي زمام أمور المسلمين، راجع المادة الخامسة من الدستور.

والنقص الآخر في عمل إقبال، هو أنه - خلافًا للسيد جمال الدين - لم يسافر إلى البلدان الإسلامية، ولم يشاهد عن كثب الأوضاع والتيارات والحركات، من هنا فقد ارتكب أخطاء فظيعة في تقييمه لبعض شخصيات العالم الإسلامي وبعض الحركات الاستعمارية في العالم الإسلامي.

إقبال في كتابه *إحياء الفكر الديني في الإسلام* اعتقد أن حركة الوهابية في الحجاز والحركة البهائية في إيران، ونهضة أتاتورك في تركيا، إصلاحية إسلامية، وفي أشعاره أشاد ببعض الدكتاتوريات العسكرية في البلدان الإسلامية. وهذه أخطاء لا يمكن تجاهلها لاقبال المسلم المصلح المخلص»(ص ٥٥ ٠ ٥٦).

الشهيد مطهري:

«إحدى علامات الحياة في المجتمع أن يقوى التضامن بين أفراده. خصائص الموت أن تتلاشى الاعضاء وتتفرق وتنفصل عن بعضها، وخاصية الحياة في المجتمع التضامن والاتحاد بين اكثر أعضائه وجوارحه. وهل المجتمع الإسلامي اليوم مجتمعًا حيًّا أم ميتًا؟ بسبب ما نراه بين المسلمين اليوم من نزاعات، وما ينشغلون به من حروب وصراعات داخلية، وما يوفرونه للعدوّ من فرص للسيطرة على مقدراتهم. فهم أموات»!!

الشهيد مطهري يعالج الانحراف في مفهوم العمل

• حين تسود في الأمة ذهنية ارتباط مصيرها بعملها، تسعى إلى الاعتماد على نفسها وعلى طاقاتها• فشت بين المسلمين أفكار تستهين بالعمل، وتركت الأفكار الواقعية المنطقية بشأن السعادة مكانها لأفكار وهمية خيالية بعيدة عن المنطق والواقع • من الانحرافات الفكرية في هذا المجال: النظرة المسوخة إلى نتيجة صراع الحق مع الباطل • نظام الخليقة بمجموعه يسير وفق معايير الحق والعدل • نحن لم نُقدِم مرة واحدة على الدخول في تجربة عملية كفاحية، ومع ذلك نقذف الخليقة بالعبثية والبطلان •انتشار فكرة المجدّدين مظهر آخر من انحراف أفكار المسلمين بشأن مفهوم العمل • من معالم مدرسة آل البيت هو الحركة الدائبة على خطّ الإسلام التكاملي •الإسلام يرفض أن تكون وشيجة القرابة شفيعًا للإنسان

يقول الشهيد مطهري:

الإسلام دين العمل، هذه الحقيقة تبدو واضحة من خلال نصوص القرآن وسنة المعصومين. هذه النصوص تؤكد للبشرية

ارتباط مصيرها بعملها في إطار فكري واقعي منطقي منسجم مع قانون الخليقة.

القرآن يتحدث عن دور العمل فيقول: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى ﴾.

ويقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

هذه التعليمات من أهم المؤثرات اللازمة لحياة الأمة وحركتها. فحين تسود في الأمة ذهنية ارتباط مصيرها بعملها، تسعى إلى الاعتماد على نفسها وعلى طاقاتها، وهذا ما يؤدّي إلى خلق الديناميكية اللازمة لحياة الأمة. هذه التعليمات تلقّاها الجيل المسلم الأول من منبع الوحي فتغلغلت في أعماقه فكرة ارتباط مصيره بعمله الخالص لوجه الله، وانبثقت في وجدانه ثقة عجيبة بالنفس، واندفع إلى ساحات الجهاد لا يهاب هيل الأعداء وهيلمانهم، ولا يخشى القُوى الكبرى المسيطرة آنذاك على العالم.

هذه التعاليم السامية اعترتها بمرور الزمن أنواع الشوائب ومُنيت بألوان الانحرافات، وتفاقم الانحراف بمرور الزمن حتى فشت بين المسلمين أفكار تستهين بالعمل، وتركت الأفكار الواقعية المنطقية بشأن السعادة مكانها لأفكار وهمية خيالية بعيدة عن المنطق والواقع.

نماذج من انحراف مفهوم العمل

من هذه الأفكار الوهمية فكرة «الحظ» التي ظهرت لتعبّر عن غياب جميع قوانين الكون وسننه في الذهنية السائدة. وهذه الفكرة انعكست على الأدب قديمه وحديثه[1].

واضح أن الحظ فكرة لا تقوم على أساس أي منطق علمي أو فلسفي أو قرآني. لكنها سرت في مجتمعاتنا إلى كل مواقف حياتنا الصغيرة والكبيرة.

نموذج آخر من الانحرافات الفكرية في هذا المجال: النظرة الممسوخة إلى نتيجة صراع الحق مع الباطل[2]. الحديث يدور في مجتمعاتنا حول عدم إمكان انتصار الحق، وعدم إمكان انتصار الدعوة الملتزمة بقيم الصدق والعدل، وعدم إمكان الإنسان

---

١ - يستشهد الأستاذ الشهيد بأمثلة من الأدب الفارسي تركز على فكرة الحظ وتربط مصير الإنسان بهذه الفكرة. ولها في الادب العربي نظائر كثيرة منها قول الشاعر:

إنّ حظّي كدقيق ... بين شوك نثروه
ثم قالوا لحفاة ... يوم ريح اجمعوه
صعب الامر عليهم ... قال قوم اتركوه!
إنّ من أشقاه ربّي ... كيف أنتم تسعدوه؟!

(المترجم).

٢ - في بعض مجتمعاتنا العربية مثل سائد يقول: «الظالم سالم» يحكي هذه الذهنية المشككة في قدرة قيم الحق والعدل والصدق على الانتصار في معترك الصراع. (المترجم).

الحصول على مكاسب مادّية إن كان مقيدًا بموازين الصدق والإنصاف!! وهذا اللون من التفكير يتناقض تمامًا مع المدرسة الإسلامية التي ركزت على النظرة التفاؤلية لمسيرة العالم.

القرآن يشير في مواضع عديدة إلى أن نظام الكون هو النظام الأحسن، ولا يمكن تصور نظام أحسن منه. يقول في آية: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ وفي آية أخرى يقول على لسان موسى بن عمران: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

والإنسان في نطاق هذا النظام موجود مختار، بمقدوره أن يسير وفق نظام الخليقة الفطري، وبإمكانه أيضا أن ينحرف يمنة ويسرة.

وهذا الاختيار واحد من مظاهر هذا النظام الأحسن، حيث الإنسان فيه كائن مسؤول وحامل للأمانة وخلاق.

هذا الاختيار يستتبعه انحراف مجموعة من الناس عن الصراط المستقيم، لكن نظام الخليقة بمجموعه يسير وفق معايير الحق والعدل. وأمام هذا الانحراف تتحمل المجموعة الصالحة مسؤولية مقارعة المنحرفين. وهذه المجموعة الصالحة السائرة على طريق النظام الكوني والمكافحة من أجل الحق والعدل تحظى بإسناد ربّ العالمين. فنظام الكون يسند السائرين على طريق الحقّ، وليس للباطل سوى جولة سرعان ما يتراجع بعدها أمام الحق. القرآن الكريم يمثل لصراع الحق والباطل أجمل تمثيل فيقول:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾.

فالزبد الذي يمثّل الباطل يذهب جفاء أمام الحق. وهذا هو قانون الخليقة الذي لا يتخلّف بينما تسرى بيننا أحاديث واهية مشككة في جدوى الكفاح من أجل الحق والعدل وعلى طريق الحقيقة والاستقامة.

نحن لم نُقدِم مرة واحدة على الدخول في تجربة عملية كفاحية، ومع ذلك نقذف الخليقة بالعبثية والبطلان.

«انتشار فكرة المجدّدين» مظهر آخر من انحراف أفكار المسلمين بشأن مفهوم العمل. هذه الفكرة تستمدّ جذورها من حديث ذي سند واه يقول: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها».

هذه الفكرة راجت في الفكرين السني والشيعي غير أنها لم تدخل الوسط الشيعي قبل القرن الحادي عشر، ففي هذا القرن كتب الشيخ البهائي رضوان الله عليه عن الكليني، ووصفه بأنه مجدد المذهب في رأس القرن الثالث، مستعيرًا هذا الوصف مما أشيع في الفكر السني. بعد ذلك أطلق على المجلسي أنه مجدد المذهب في رأس القرن الثاني عشر، والوحيد البهبهاني مجدد

المذهب في رأس القرن الثالث عشر، والميرزا الشيرازي مجدّد المذهب على رأس القرن الرابع عشر الهجري.

الغريب في هذه الفكرة أن النوابغ الذين ظهروا في أواسط القرون الهجرية لم يعتبروا مجدّدين!! كل ذنبهم أنهم لم يظهروا على رأس القرن كالشيخ الطوسي مثلا. والأغرب من ذلك أن الباحثين عن المجدّدين لم يستثنوا عتاة الملوك من حساباتهم فاعتبروا نادر شاه مثلاً من المجددين!!

هذه الفكرة تتعارض تعارضًا تامًا مع مبدأ التغيير الذي تقرره الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

هذا المبدأ يربط كل تغيير في المجتمع الإنساني بتغيير المحتوى الداخلي لأفراد ذلك المجتمع. تجديد الحياة الاجتماعية ـ انطلاقًا من مفهوم هذه الآية ـ لا يتم إلاّ حينما يكون أفراد الأمة مستعدين لمثل هذا التغيير. بينما فكرة المجددين تعفي الأمة من هذه المسؤولية، وتلقيها على عاتق فرد أو أفراد معينين، وبهذا الترتيب تمسخ أعظم سنّة قرآنية حركية عملية.

فكرة المجددين استغلها الطامعون المستغلون ليثيروا الفتن والمجازر، وليصرفوا الأمة عن التفكير بنواقصها ومشاكلها وتخلّفها وانحرافها.

جذور انحراف مفهوم العمل

يحدثنا التاريخ أنّ انحراف مفهوم العمل في الإسلام بدأ منذ ظهور فكرة «الإرجاء» على يد أناس غارقين في أوحال الرذيلة. هذه الفكرة التي تبنّتها السلطة الحاكمة في العهد الأموي وراحت تفرّق بين «الإيمان» و«العمل»، وتؤكد على أهمية ما يضمره الإنسان في قلبه من إيمان، وتستهين بالعمل[1].

مدرسة أهل البيت تقف بوجه التحريف

وقف أئمة آل البيت (عليهم السلام) بوجه كل انحراف ظهر بعد وفاة القائد الأول (صلى الله عليه وآله وسلم) بما في ذلك انحرافات المرجئة، ومفاهيم انفصال الإيمان عن العمل والاستهانة بالعمل.

الأحاديث الكثيرة التي وصلتنا عن هؤلاء الأئمة في هذا المجال تؤكد أنهم خاضوا خلال قرون متوالية حربًا فكرية هدفها إحباط محاولات المسخ والتشويه، والتأكيد على أهمية العمل، ودفع المسلمين نحو الالتزام العملي بالخط الإسلامي.

---

١ - قالت المرجئة: «لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة» وقالوا: «إن الإيمان الاعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان، ولزم اليهودية والنصرانية في دارالإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عندا لله عزوجل، ولي لله عزوجل، من أهل الجنة»!! (ابن حزم، الفصل في الملل والنحل/ ٤/٢٠٤).

وهذه طائفة من تلك الأحاديث (نهج البلاغة/ ٧١٨):

عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): «وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيماء الصدّيقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمّار الليل، ومنار النهار.. لا يستكبرون، ولا يعلون، ولا يغلّون، ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»(نهج البلاغة/ ٩٨).

وعنه: «ألا وإنّ اليوم المضمار، وغدًا السباق.. ألا وإنكم في أيام أمل، من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله، قبل حضور أجله، فقد نفعه عمله، ولم يضرره أجله» (غرر الحكم/ ١٤).

وعنه: «المؤمن بعمله»(غرر الحكم/ ٢٣).

وعنه: «المرء لا يصحبه إلاّ العمل» (غرر الحكم/ ٥٣).

وعنه : «العلم يرشدك، والعمل يبلغ بك الغاية»(غرر الحكم/٥٣).

وسئل علي (عليه السلام): «الإيمان قول وعمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الإيمان تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. وهو عمل كله» (البحار ٦٩/ ٧٤).

وعنه أيضا: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجو التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا قول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين.. ثم يبالغ في المسألة حين يسأل، ويقصّر في العمل، فهو بالقول مدلّ، ومن العمل مقلّ، يرجو نفع عمل مالم

يعمله»(تحف العقول/ ١١٠).

وعن الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام): «إن ولايتنا لا تدرك إلا بالعمل»(الكافي ٧٥/٢).

وعنه: «لا يقبل عمل إلا بمعرفة. ولا معرفة إلاّ بعمل»(تحف العقول/ ٢١٥).

سئل أبو جعفر(الباقر) عن اللعب بالشطرنج فقال: «إنّ المؤمن لفي شغل عن اللعب»(الخصال ٦٢/٢).

وعن الباقر أيضا: «إياك والتسويف، فإنه بحر يغرق فيه الهلكى»(البحار ١٦٤/٧٨).

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «الإيمان عمل كلّه»(الكافي ٣٤/٢).

وعنه: «الإيمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الإيمان إلا بعمل»(الوسائل ١٢٧/٦).

وعنه أيضا: «ملعون، ملعون من قال: الإيمان قول بلا عمل»(البحار ١٩/٦٩).

وعنه: «يا ابن جندب... رحم الله قومًا كانوا سراجًا ومنارًا، كانوا دعاة إلينا بأعمالهم ومجهود طاقاتهم»(تحف العقول/ ٢٢١).

وعنه: «كونوا دعاة الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاة بألسنتكم»(الكافي ٧٨/٢).

وعن الصادق أيضا: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كانت آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان، فالموت خير له من الحياة»(الوسائل ٣٧٦/١١).

كل هذا التأكيد على مفهوم العمل يوضّح مَعلَما هامًا من معالم مدرسة آل البيت هو الحركة الدائبة على خطّ الإسلام التكاملي، ونبذ كل انفصال بين الإيمان والعمل، وجعل العمل معيارًا لتقويم خلوص الإنسان وقربه من اللّه.

نحن اليوم اكتفينا مع الأسف بالانتساب إلى مدرسة آل بيت رسول اللّه (ص) على مستوى القول لا العمل.

الإسلام أكد أن الانتساب وحده، أيًا كان شكله، لا يغني الإنسان عن العمل، ولا يمكن أن يشكل نقطة إيجابية في صفحة أعمال الإنسان إن لم يرافقه التزام عملي.

القرآن يدين أولئك الذين زعموا أن لهم عند اللّه قرابة وزلفى، وأنهم مستثنون من العذاب الإلهي:

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾؟!

﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

الإسلام يرفض أن تكون وشيجة القرابة شفيعًا للإنسان. يتحدث القرآن عن نوح(ع) أنه قال لرب العالمين حين رأى قرب هلاك ابنه: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي ﴾.

فيجيبه الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

وعن الإمام الصادق (ع) لما فتح رسول الله (ص) مكة، قام على الصفا فقال: «يا بني هاشم! يا بني عبدالمطلب إني رسول الله إليكم، وإني شفيق عليكم. لا تقولوا: إنّ محمدًا منّا. فو الله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون.. ألا وإني قد أعذرت فيما بيني وبينكم، وفيما بين الله عزوجل وبينكم، وإنّ لي عملي ولكم عملكم»(البحار/ ٩٦ / ٢٣٣).

وروي أن رسول الله(ص) قال لبضعته فاطمة الزهراء (عليها السلام): «يا فاطمة اعملي بنفسك إني لا أغني عنك من الله شيئًا».

وعن الإمام علي بن موسى الرضا (عليهم السلام): «أنه ليس بين الله وبين أحد قرابة. ولا تنال ولاية الله إلا بالطاعة. ولقد قال رسول الله لبني عبد المطلب: إيتوني بأعمالكم لا بأحسابكم وأنسابكم. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ، فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾».

الإمداد الغيبي
في رؤية الشهيد مطهري

• المدرسة الإلهية لا تنظر إلى العالم نظرة المحايد في موقفه تجاه أصحاب الحق الباطل • المسلم يؤمن ويعتقد أنّ الموجودات الكونية سوف تهبّ لحمايته ونُصرته، إن ضحّى في سبيل عقيدته وإيمانه • جمع كبير من العلماء المعاصرين يذهب إلى أن كثيرًا من النظريات أُوحيت إلى العلماء عن طريق شبيه بالإلهام • الرجال العظام والطاهرون يستطيعون، عن طريق الإشراق، التوصل إلى قمة الحياة المعنوية • الإنسان لم يترك سدى، فاللطف الإلهي والعناية الربانية تشمله في شروط معينة • إن الخطر الذي يحدق بالبشرية اليوم ليس بأقل مما كان يحيط بمجتمعات العصور السالفة، بل إنه أكثر وأعظم • ليس هناك من شك في أن التقدم العلمي لم يترك أي أثر إيجابي على الغرائز البشرية • لو حكمنا على الأمور من خلال الأسباب والظواهر المادية لما حكمنا عليها حقًا بغير هذا النوع من التشاؤم • الإنسان الإلهي يرى: أن العالم لم يُخلق عبثًا

يقول الشهيد مطهّري:

إذا نصرتم الحقيقة، فلابد أن تكون الحقيقة سنداً لكم وظهيرًا.

وهنا يبدو بوضوح الفرق بين الإنسان الإلهي والإنسان المادي.

ليس ثم تفاوت - في نظر الإنسان المادي - بين طريق الحق والباطل، وبين العدل والظلم. وليس للحق والباطل، ولا للصالح والطالح في ميزان النظام الكلّي للعالم حساب ووزن.

فالعالم لا يعبأ بهذه الموازين والقيم.

ليس للعالم - في الرؤية المادية - عين ولا أُذن ولا عقل ولا إدراك يعي بواسطتها القِيَم المختلفة ليسند ويؤيد السائرين على طريق الحقّ، ويخذل المنحرفين عن الطريق السويّ المستقيم.

إلا أن الإنسان الإلهي يفرّق بين الطريقين. فهناك حقيقة تسند دعاة الحق وتأخذ بأيديهم.

ذكرت في كتاب «الإنسان والمصير» تحت عنوان «أثر العوامل المعنوية على المصير»: «أن الرؤية المادية للعالم تذهب إلى أن العوامل المؤثرة على أجَلِ الإنسان ورزقه وسلامته وسعادته مادية صرفة. فالعوامل المادية وحدَها هي التي تتحكّم في تقريب أجَل الإنسان، وفي ضيق رزقه وسعته، وفي سلامة جسمه، وكذا في ضمان سعادته.

إلا أن الرؤية الإلهية للعالم تذهب إلى أن العوامل الروحية والمعنوية تؤثر، إلى جانب العوامل المادية - في كل ما يعتري الإنسان شرًا أم خيرًا.

النظرة الإلهية تعتبر العالم وحدة حيّة ذات إدراك وشعور. أعمال البشر فيه محصيّة، ولأفعالهم نتائج يتلقونها عاجلا أم آجلا..».

النظرة المادية ترى أن العالم يقف محايدًا تجاه السنن التشريعية والاتجاهات العملية البشرية. أي ترى أن السنن الكونية في العالم لا تتحيّز لأنصار الحق أو لأنصار الباطل، لأن مفاهيم الحق والباطل، والصحيح والخطأ، والعدل والجور، لها في المنظار الكوني حساب واحد.

لكن المدرسة الإلهية لا تنظر إلى العالم نظرة المحايد في موقفه تجاه أصحاب الحق والباطل.

العالم - في رأي هذه المدرسة - مناصر للسائرين على طريق الحق والعدالة والاستقامة، ولذوي الأهداف المقدسة.

الإنسان المادي - مهما أوتي حظًا من الإيمان والاعتقاد بمذهبه وطريقه، ومهما كانت أهدافه وآماله ذات مصلحة عامة ومقدسة وبعيدة عن الذاتية والنفعيّة - لا يؤمن بأكثر من أنه سوف يتلقى نتائج أعماله بمقدار ما بذله من سعي وجهد لا أكثر.

بينما الفرد المسلم يؤمن ويعتقد أنّ الموجودات الكونية سوف تهبّ لحمايته ونُصرته، إن ضحّى في سبيل عقيدته وإيمانه. ويؤمن أنّ الكون ينطوي على قوى تفوق آلاف المرات تلكم القوى التي يبذلها في الطريق.

الرؤية المادية تؤكد أن دعاة الحق يتلقّون من نتائج أعمالهم بنفس القدر الذي يُتاح للظالمين أن يكسبوه نتيجة ظلمهم؛ إذ ليس ثمة فرق - في الفهم المادي - بين الفريقين، إلا أن الفرق هائل في حساب المدرسة الإلهية.

الإلهام والإشراق

الإلهام أو الإشراق نوع من المدد الغيبي ينفذ إلى كيان العلماء فيفتح لهم أبوابًا من العلم تؤدي إلى اكتشافات هائلة.

إن الطرق التي نفهمها للوصول إلى العلم اثنان، إحدهما: التجربة والمشاهدة العينية، والآخر: القياس والاستدلال.

هذه المكتسبات طبيعية لأنها النتيجة القطعية اللازمة لمقدمات طواها الإنسان بشكل عملي. غير أن هذه المكتسبات ـ في المنظار الفلسفي الدقيق ـ ليست منفصلة عن منشأ إلهامي. وإلى هذا يشير السبزواري في منظومته:

والملهم المبتدع العليم حيّ قديم منّه عظيم

وهذا خارج عن بحثنا.

والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو: هل إن البشرية قد طوت مسيرتها العلمية من خلال هذين الطريقين فحسب، أم إن ثمة طريقًا ثالثًا قد أمدّها بما توصّلت إليه وجَنَته؟

يعتقد العلماء أن هناك طريقًا ثالثًا. ولعل أغلب الاختراعات والاكتشافات الكبرى تمت عن هذا الطريق الثالث، وهو نوع من تيار كهربائي قد ينقدح فجأة في نفس العالم وعقله، فيضيء ما حوله، ثم ما يلبث أن ينطفيء.

يعتقد ابن سينا أن هذه القوة موجودة في الأفراد بدرجات متفاوتة ومختلفة، ويذهب إلى تفسير الآية الكريمة:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

بهذه القوة التي لها وجود شديد مؤثر عند بعض الأفراد.

يذهب الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» إلى أن أكثر معلومات البشر المرتبطة بالاحتياجات المعاشية انبثقت أولا بشكل إلهامي. وفي بحثه عن الوحي والنبوة يقول: إن مجموعة المعلومات التي يمتلكها البشر عن الأدوية والعلاج وعن النجوم لا يمكن أن تكون مكتسبة عن طريق التجربة، فلابد أن تكون صادرة عن اللطف الإلهي، بطريق الإلهام، لهداية البشر.

الخواجه نصير الدين الطوسي هو الآخر في بحثه عن الوحي والنبوة يذهب إلى أن معظم ما توصل إليه البشر تم عن طريق الإلهام.

لعل الكثيرين يتصورون أن الإلهام فكرة قديمة ليس لها اليوم أنصار، ويخالون أن الحواس الظاهرة هي مصدر كل معلوماتنا في عالمنا اليوم عن طريق المشاهدة والتجربة، ولا شيء غير هذه الحواس!!

لكنّ المسألة ليست كما يتصورون ويخالون.

جمع كبير من العلماء المعاصرين يذهب إلى أن كثيرًا من النظريات أُوحيت إلى العلماء عن طريق شبيه بالإلهام.

يدافع «الكسيس كارل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» عن نظرية الإشراق والإلهام ويقول:

«من المؤكد أن الاكتشافات العلمية ليست فقط حصيلة الفكر الإنساني. النوابغ يمتلكون خصائص معينة كالإشراق والخلاقية، إضافة لما لهم من مطالعات وتفكير في المسائل المختلفة. فعن طريق الإشراق يدركون ما خفي عن الآخرين،

ويبصرون الروابط المجهولة بين القضايا التي يُظن أن لا ارتباط بينها، ويتوصلون إلى فهم المسائل الهامة دونما دليل وبرهان».

ويقول أيضا:

«يمكن تقسيم العلماء إلى فريقين: منطقيين وإشراقيين، والعلوم مدينة لهذين الفريقين. وللإشراق نصيبه في العلوم الرياضية أيضا، مع أنها تستند إلى أساس منطقي كامل. ويحتل الإشراق في الحياة الاعتيادية - كما في القضايا العلمية - محلا خطيرًا باعتباره عاملاً للفهم والإدراك، ويصعب التمييز أحيانًا بينه وبين التوهّم...

الرجال العظام والطاهرون يستطيعون، عن طريق الإشراق، التوصل إلى قمة الحياة المعنوية. وهذ الموهبة عجيبة حقًا، وإدراك الواقع دونما دليل وتفكير، غير قابل للتفسير».

يعرض لنا «الكسيس كارل» ثلة من علماء الرياضيات يدّعي أنهم منطقيون اكتسبوا معلوماتهم عن طريق السعي والاستنتاج المنطقي فحسب، ويعرض إلى جانب هؤلاء أسماء عدة من علماء الرياضيات الذين تلقّوا علمهم عن طريق الإشراق والإلهام.

هذه النظرية أيّدها علماء آخرون. وأخيرًا اطّلعتُ على مقال للعالم الرياضي الفرنسي «جاك هادا مارا» تحت عنوان «دور العقل الباطن في في الإدراك العلمي» جاء في ترجمته:

«حينما نفكر بالعوامل التي أدت إلى ظهور الاكتشافات والاختراعات فإننا لا نستطيع إطلاقًا أن نتجاهل دور الإدراك الفجائي الداخلي.

كل عالم محقق يدرك ـ إلى حد ما ـ هذه المسألة، ويعلم أن بعض ما توصل إليه من المسائل العلمية كانت نتيجة سلسلة من النشاطات الشعورية، بينما توصل إلى البعض الآخر عن طريق الإلهام الباطني».

العالم الكبير «أنشتاين» كان له نفس هذا الإيمان حول الفرضيات الكبرى، وكان يقول إن مبدأ هذه الفرضيات نوع من الإلهام والإشراق.

نتيجة

نفهم من مجموع ما ذُكر أن أنواعًا من الإمدادات الغيبية لها وجود في حياة الأفراد، تمنح الفرد أحيانًا عزمًا وإرادة وربطًا على القلب، وقد تعدُّ له الوسائل المادية، أو تبرز هذه الإمدادات بشكل قوة تهدي وتُنير، وتلهم الأفكار العلمية.

من هنا نعلم أن الإنسان لم يترك سدى، فاللطف الإلهي والعناية الربانية تشمله في شروط معينة، وتنتشله من الضلالة والضياع والحيرة، وتنجيه في لحظات العجز والخور والضعف.

إن هذا شأن الأفراد فما شأن المجتمعات؟

الإمداد الغيبي الاجتماعي

هل من الممكن أن تمتد يد العناية الغيبية إلى مجتمع كي تنتشله من هوّته وتساعده في قيامه؟

الأنبياء العظام كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله

عليه وعليهم، والمصلحون المعروفون، ظهروا في وقت تحتاج إليهم البشرية أيمّا احتياج.

إنهم كانوا كاليد الغيبية التي امتدت لتُنجي البشرية. كان شأنهم كالديمة السمحاء التي تهطل في صحراء قاحلة مجدبة، كانوا مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

الإمام علي (عليه السلام) يصف الظروف التي رافقت البعثة النبوية المباركة فيقول:

« أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَ اعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ وَ انْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ وَ تَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ وَ الدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا وَ إِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا».

إن ظهور الأنبياء أعقب سقوط البشرية، أو انحدار مجتمع من المجتمعات في هوّة سحيقة، فكان أولئك الأنبياء سببًا للإنقاذ والنجاة.

القرآن الكريم يخاطب معاصري الدعوة قائلا: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾

يقول المثل الفارسي: «الضياء والصباح نهاية الليل الأسود» وتقول أمثال بعض الشعوب: «الفرج نهاية الشدة». وهذه المقولات تتحدّث عن نوع من التجارب البشرية، وتدلّ على أن سير الكون ليس عبثيًا كما يتصوّره الماديون.

مسألة المهدي

مسألة المهدي في الإسلام، هي مسألة فلسفية كبرى.

الإنقاذ المرتقب لا ينحصر في أمة معينة أو منطقة مشخّصة أو جنس بالذات، بل إن الإنقاذ يمتدّ ليشمل البشرية جمعاء، وليسير بها نحو مدارج الرقي والصلاح والسعادة.

ربما قال قائل: إننا في عصر العلم وتسخير الفضاء، وليس ثم خطر يواجه البشرية كي تكون هناك حاجة إلى إمداد غيبي!! البشرية ترتقي على سلّم الاستقلال والكمال، ويقلّ احتياجها تدريجيًا إلى المعونة والإمداد، فالعقل والعلم يملآن فراغ الحاجة والاستمداد!! كان الخطر يواجه البشرية حينما كانت تغطّ في غياهب الجهل والانحطاط، وليس ثمّ خطر يواجه مجتمعًا تنوّر بالعلم والمعرفة!!

هذا الجنوح في الخيال لا أساس له مع الأسف.

إن الخطر الذي يحدق بالبشرية اليوم ليس بأقل مما كان يحيط بمجتمعات العصور السالفة، بل إنه أكثر وأعظم.

من الخطأ أن نعتقد أن الجهل كان وراء انحراف البشرية دائمًا. وهذه مسألة شغلت الباحثين في علم التربية والأخلاق.

إن سبب الانحراف هو الغرائز والأهواء المرسلة العنان. هو الشهوة والغضب والحرص على طلب الشهرة والجاه، والنهم في الاستكثار من اللذة، وحبّ الذات وعبادتها.

والآن لنلق نظرة على الغرائز المادية، والأهواء البشرية في عصرنا الراهن، وكذا على دوافع السيطرة واستثمار الآخرين

وعبادة الذات والمنفعة الشخصية، وعلى دوافع الظلم الإنساني.

هل إنها جميعًا هادئة مستقرة في ظل العلم؟

هل إنها مهذبة بروح العدل والتقوى والرضا والعفاف والاستقامة؟!

أم إن المسألة معكوسة تمامًا؟!

لم يعد خافيًا أن الغرائز البشرية المادية قد جنّت اليوم أكثر من أي وقت مضى، وأضحت العلوم والفنون أدوات وآلات لدن تلكم الغرائز.

أضحى مَلاك العلم في خدمة شيطان الشهوة، وأصبح العلماء وكل المشتغلين في الحقل العلمي أدوات طيّعة تخدم الساسة والفراعنة وطلاب السيطرة والنفوذ.

ليس هناك من شك في أن التقدم العلمي لم يترك أي أثر إيجابي على الغرائز البشرية.. بل بالعكس فإن هذا التقدم زاد من غرور الإنسان وطغيانه وهيّج غرائزه الحيوانية، وسعّر لظاها، حتى أضحت العلوم والفنون اليوم أكبر عدوّ للبشرية.. أي إن هذا الصديق الحميم للبشر أصبح عدوًا لدودًا له..

لماذا؟!

لأن العلم مصباح، وسيلة إنارة.. الاستفادة منه ترتبط بكيفية استعمال هذا المصباح، والهدفِ من وراء هذا الاستعمال.

يستطيع الفرد أن يستفيد من المصباح لقراءة كتاب أو ـ على حد قول الشاعر الفارسي سنائي ـ لانتقاء المتاع الأفضل عند السرقة.

العلم سلّم تستطيع البشرية عن طريقه أن تصل إلى أهدافها، وتحقق غاياتها، وليس العلم بقادر على تغيير أهداف الإنسان، ولا يستطيع أن يقدّم له قِيَمًا ومقاييسَ إنسانية.

هذه وظيفة الدين.. الدين هو الذي يستطيع أن يتحكّم في الغرائز والأهواء الحيوانية، ويحرّك في الإنسان الدوافع النبيلة السامية.

العلم يستطيع أن يُخضع لسيطرته كلَّ شيء، إلا الإنسان وغرائزه. الإنسان هو الذي يسخّر العلم في الاتجاه الذي يطمح إليه. والدين هو الذي يسخّر الإنسان ويوجهه الوجهة الخاصة.

يقول «ويل ديورانت» في مقدمة كتابه «لذائذ الفلسفة» عن إنسان عصر الآلة: «نحن أصبحنا أغنياء في التكنيك والآلة، إلا أننا فقراء في الهدف.

لم يتغيّر الإنسان في عصر العلم عن ذاك الإنسان الذي كان يعيش في عصور قد خَلَت من قبل في كونه أسيرًا لقوتي الغضب والشهوة وعبدًا لهما.

لم يستطع العلم أن يحرّر الإنسان من أهوائه النفسية.. لم يستطيع أن يغيّر روح التجبّر والتفرعن والسفك والغضب في الإنسان.

مع فارق، هو أنّ روحَ النفاق والتظاهر قد سادت في عالمنا اليوم، وهيمنت عليه. وأن يدَ الاعتداء قد طالت فتجاوزت حدودَ السيف لتصل إلى مرتبة الصواريخ عابرة القارات، وإلى قاذفات القنابل».

مستقبل العالم

إننا مسلمون مؤمنون بوجود إله مهيمن على هذا الكون. وهذا الإيمان هو الذي يقلّل من خطر الكارثة في أعيننا.

كل الأخطار التي تحيط بالإنسانية اليوم لا توحي لنا بالفناء الكامل لهذا الكون، لأننا مطمئنون في أعماقنا بأن للبشرية مستقبلاً يمتدّ إلى ملايين السنين.

إن هذا الاطمئنان تبعثه في النفس تعاليم الرسل والأنبياء، إنه في الواقع إمداد غيبي نستند إليه.

لو أُخبرنا بنجم ضخم يسير بسرعة في الفضاء، ويقترب تدريجيًا من مدار الأرض، وبأنه سيرتطم بالأرض بعد ستة شهور ليحوّلها إلى كومة رماد.. لو قيل لنا هذا لما تسرّب إلينا الخوف، لأن في أعماقنا نوعًا من الاطمئنان والإيمان بأن الوقت لم يحن لفناء البشرية التي لم يمض طويلاً على تفتّح براعمها.

وكما أننا لا نؤمن بأن أرضنا ستفنى بفعل سقوط نجم أو كوكب، كذلك لا نصدّق مقولة فناء الأرض بيد القوى البشرية المخربة.

والآخرون..؟ هل إنهم لا يصدقون أيضا؟

هل هم متفائلون أيضا بمستقبل الأرض والإنسان والحياة والمدنية والسعادة والعدالة والحرية؟!

كلا..

إننا نلاحظ باستمرار علامات الخوف والتشاؤم في خطب وأحاديث ساسة العالم بالنسبة إلى مستقبل البشرية والحضارة.

ولو أهملنا تعاليم الدين وإيماننا بالإمداد الغيبي، ولاحظنا المسألة على أساس العلل والأسباب الظاهرية، لوافقناهم في التشاؤم، وجعلنا الحقّ في جانبهم.

لماذا لا يتشاءمون؟!

أيّ تفاؤل في دنيا يقرّر مصيرَها ضغط زرّ يؤدي إلى انطلاق وسائل الدمار والتخريب؟!

أيّ تفاؤل في عالم يرقد على كتل عظيمة من البارود تنتظر الشرارة كي تتحول إلى حريق عالمي؟!

يقول «رسل» في كتابه «الآمال الجديدة»:

«إن الاحساس بالحيرة والضعف وعدم القدرة يسود في عصرنا الحاضر.

نرى أنفسنا نقتربُ من حرب لا نريدها جميعًا، حرب سوف تفني معظم البشر.

ومع هذا فإننا كأرنب قد لاقى حيّة فمكث في مكانه، ننظر من طرف خفيّ إلى الخطر المحدق بنا دون أن ندري ما نعمل!!

أحاديث القنبلة الذرية والهيدروجينية المخوفة المخربة تنتشر في كلّ مكان، ونتناقل فيما بيننا أخبارَ الجيش الروسي (إن كتاب ـ الآمال الجديدة ـ قد كتب يوم كان الغرب مرعوبًا من الروس، أما الآن فقد برزت الصين لتُرعب المعسكرين كليهما)، وأخبارَ القحط والتكالب والوحشية.

في الوقت الذي نقف فيه نحن أمام هذه المظاهر مذهولين

مذعورين، فإننا لم نعد قادرين على اتخاذ موقف حازم من هذه المأساة».

وهل البشر قادرون على اتخاذ مثل هذا الموقف؟!

هو يقول أيضا:

«إن مدة ظهور الإنسان طويلة بالنسبة إلى عصر التاريخ، لكنها قصيرة بالنسبة إلى العصور الجيولوجية.

يقال إن الإنسان قد ظهر إلى الوجود قبل مليون سنة، ويذهب البعض ومنهم ـ أنشتاين ـ إلى أن الإنسان قد اجتاز فترته الحياتية، وسيستطيع خلال سنين معدودة، بمعونة تقدّمه العلمي الهائل، أن يفني نفسه».

لو حكمنا على الأمور من خلال الأسباب والظواهر المادية لما حكمنا عليها حقًا بغير هذا النوع من التشاؤم. وهذه النظرة السلبية لا يمكن أن تتبدل إلى نظرة إيجابية متفائلة إلا عن طريق إيمان روحي، إيمان بأن الإنسانية تنتظر في مستقبل أيامها حياة الرفاه والسعادة والأمن والعدل.

لو أننا قبلنا صورة التشاؤم القاتمة، فإن حياة الإنسانية ستكون مضحكة حقًا.. إنها تشبه حياة ذلك الطفل الذي ما إن استطاع حمل السكين حتى أسرع إلى الانتحار بغرس السكين في بطنه.

يقال: إن عمر الأرض أربعون مليار سنة، وأن عمر الإنسان على هذا الكوكب يقرب من مليون سنة.

ويقال أيضا: لو افترضنا أن عمر الأرض سنة واحدة، فإن

ثمانية أشهر مضت من هذا العمر دون أن يوجد على ظهر الأرض أي أثر للحياة.

وفي حدود الشهر التاسع بدأ ظهور الحياة بشكل فايروسات ذات خلية واحدة.

في الأسبوع الثاني من الشهر الأخير ظهرت الحيوانات اللبنية، وفي الربع الأخير من الساعة الأخيرة للسنة ظهر الإنسان.

والفترة التي خرج فيها الإنسان من حياته المتوحّشة وحياة الغابات والكهوف هي آخر ستين ثانية من هذه السنة. وفي هذه الثواني الستين ظهر استعداد الإنسان في الاستفادة من عقله في تسخير مظاهر الطبيعة، وفي بناء حضارته ومدنيته. وفي هذه الثواني الستين أثبت الإنسان جدارته بتحمل أعباء خلافة الله في الأرض.

ولو قيل الآن إن الإنسان بمهارته العلمية الفائقة سيفني نفسه عاجلاً، ولم يتبق من زواله سوى بضع أقدام من مسيرته. لو قيل هذا، فإنه لا يعني سوى أن مسألة خلق الإنسان ليست إلا عبثًا لا معنى لها.

نعم، إنّ نفرًا من الماديين يستطيع أن يزعم هذا، لكن الفرد الذي تربّى في المدرسة الإلهية لا يمكن أن يذهب إلى هذا التفكير.. إنه يقول: لا يمكن للعالم أن يفنى بيد نفر من المجانين. إنه يؤمن بالخطر المحدق بالعالم، ولكنه يؤمن أيضًا بأن تجربة الإنقاذ التي تفضّل بها الله على البشرية سوف تتكرر، وسوف تمتدّ يد الغيب لتبعث المنجي والمصلح كما فعلت مِنْ قبل.

الإنسان الإلهي يرى: أن العالم لم يُخلق عبثًا، ويسخَرُ مِنْ مقولة الماديين حول فناء الإنسان التي يصدق عليها المثل العربي:

«ما أدري أسلّم أم ودّع».

فناء البشرية في عصرنا الراهن مخالف لحكمة الله:

إذ مقتضى الحكمة والعناية إيصال كل ممكن لغاية

كلا.. إن عمر الأرض لم ينته بعد، إنه في أول مراحله.

البشرية تنتظر دولة عالمية قائمة على أساس العدل والخير والسعادة والأمن والرفاه.

سوف يصل اليوم الموعود وتُشرق الأرض بنور ربها وسيكون ذلك:

«إذا قام القائم.. وحكم بالعدل، وارتفع في أيامه الجور، وأمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتها، ولا يجد الرجل منكم يومئذ موضعًا لصدقته ولا برّه، وهو قوله تعالى: والعاقبة للمتقين».

بدل أن نكون سلبيين متشائمين، بدل أن نجلس لنعدّ الأيام المتبقية من عمر البشرية، بدل كلّ هذا، علينا أن نتطلّع إلى إطلالة فجر النصر من وراء كل الخطوب، فالشرارة لا تنير إلا في الظلمة.

يشير الإمام علي إلى ظهور المهدي فيقول:

« حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بَادِيًا نَوَاجِذُهَا[1]، مَمْلُوءَةً

---

١ - النواجذ: أقصى الأضراس أو الأنياب، كناية عن شدة احتدام الحرب.

أَخْلَافُهَا[1]، حُلْوًا رَضَاعُهَا[2]، عَلْقَمًا عَاقِبَتُهَا[3]. أَلَا وَ فِي غَدٍ وَسَيَأْتِي

غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا[4] وَ تُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا[5]، وَ تُلْقِي إِلَيْهِ سِلْمًا مَقَالِيدَهَا فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ وَ يُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَ السُّنَّةِ[6]» .

الإمام علي يتطلع إلى غد عبوس مكفهرّ، ولكنه يبشر بطلوع فجر النصر من وراء كل تلكم الظلمات.

والقرآن الكريم يقول:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

نعم. هذه هي الفلسفة العظمى في مسألة ظهور المهدي.

إنها وإن كانت تنذر بأزمات عظام.. لكنها تبشر بالسعادة وانتصار الحق والعدالة بعد هذه الأزمات.

---

١ - الأخلاف، جمع خلف: الضرع، كناية عن غزارة مافيها من الشر.

٢ - حلوًا رضاعها: للمظلومين والمستضعفين .

٣ - علقمًا عاقبتها: للظالمين .

٤ - إذا انتهت الحرب حاسب الوالي القائم كلّ عامل من عمال السوء على مساوئ أعمالهم، وإنما كان القائم من غيرها لأنه بريء من جرمها .

٥ - أفاليذ جمع أفلاذ جمع فلذة: وهي القطعة من الذهب والفضة .

٦ - أفاليذ جمع أفلاذ جمع فلذة: وهي القطعة من الذهب والفضة .

ضرورة الايمان الديني
في رؤية الشهيد مطهري

• الإنسان والحيوان يشتركان في اللذة والألم، لكن الإنسان وحده يختص بشعور الرضا والارتياح، أو الكره وعدم الارتياح • النشاطات التدبيرية شرط لازم لإنسانية الكائن البشري • الحيوان المفترس قد يفتك بإنسان إشباعًا لجوعته، أما الإنسان فقد يسخّر قوته التدبيرية لإبادة المدن الآمنة، وإزهاق أرواح ملايين الأفراد الأبرياء • مفهوم السعادة الذي يبدو واضحًا جليًا هو من أعقد المفاهيم وأكثرها غموضًا • انتماء الفرد لإيويولوجية معينة لا يمكن أن يكون واقعيًا إلا إذا اتخذ طابع «الإيمان» • الإسلام استطاع عمليًا أن يكسب له أنصارًا بين جميع الطبقات

يقول الأستاذ مطهري:

ماهي الضرورة التي تفرض على الإنسان، باعتباره فردًا، أو عضوًا من أعضاء المجتمع، أن يتمسك بعقيدة معينة ويؤمن بإيديولوجية خاصة؟

هل إن وجود العقيدة ضروري للفرد وللمجتمع؟

من أجل الإجابة على هذه الأسئلة لابد من مقدمة.

نشاطات الإنسان على شكلين:

- التذاذية.

- وتدبيرية.

النشاطات الالتذاذية هي التي يؤدّيها الإنسان بتأثير مباشر من الغريزة أو الطبيعة أو العادة (باعتبارها طبيعة ثانوية) من أجل الحصول على لذّة أو التخلّص من أَلمَ. كاتجاه الإنسان نحو الماء حين يحسّ بالعطش، وهروبه حين يداهمه حيوان مفترس، وإشعاله لفّافة حين يشعر برغبة في التدخين.

مثل هذه الأعمال توافق الطبع والرغبة ولها ارتباط مباشر باللذة والألم.

العمل الملذّ يجذب الإنسان نحوه، والعمل المؤلم يبعد الإنسان عنه.

النشاطات التدبيرية أعمال لا تنطوي بنفسها على جذب أو إبعاد، ولا يندفع الإنسان نحوها أو يبتعد عنها بتأثير غريزته وطبيعته، بل يؤديها الإنسان أو يبتعد عنها انطلاقًا من عقله وإرادته، ومن مصلحة يراها في أدائها أو الابتعاد عنها.

أي إن العلّة الغائية والقوة المحركة الدافعة للإنسان في مثل هذه النشاطات هي المصلحة لا اللذة.

الطبيعة البشرية هي التي تشخّص اللذة، والعقل يشخّص المصلحة.

اللذة تثير الرغبة والمصلحة تحفّز الإرادة.

الإنسان يشعر باللذة حين يؤدّي الأعمال الالتذاذية، ولا يحس

بلذّة من الأعمال التي تنطوي على مصلحة. لكنه يشعر بالارتياح حين يتصور أنه يقطع، بعمله التدبيري خطوة على طريق المصلحة النهائية، التي تتمثل بالخير والكمال أو بلذة مستقبلية.

الفرق واضح بين عمل ملذّ ومسرّ، وعمل لا يبعث على اللذّة بل ينطوي على الألم أحيانًا، لكن الإنسان يؤدّيه ـ مع ذلك ـ عن رضا وارتياح.

الأعمال التدبيرية ليست ملذة ولا مسرة لبعد نتيجتها، لكنها مرضية.

الإنسان والحيوان يشتركان في اللذة والألم، لكن الإنسان وحده يختص بشعور الرضا والارتياح، أو الكره وعدم الارتياح، وهكذا الأمل فهو مما يختص به الإنسان.

الرضا والكره والأمل تقع في إطار المعقولات والأفكار البشرية لا في إطار الحواس والإدراك الحسّي.

قلنا إن الإنسان يؤدي أعماله التدبيرية انطلاقًا من عقله وإرادته، خلافًا للأعمال الالتذاذية التي يؤدّيها الفرد بتأثير الرغبة والإحساس.

الانطلاق من العقل يعني أن القوة العقلية ترى في الأفق البعيد خيرًا ولذّة وكمالاً، وتكتشف طريق الوصول إلى ذلك الهدف وإن صعب هذا الطريق أحيانًا، وتخطّط من أجل الوصول إليه.

والانطلاق من الإرادة يعني أنّ الإنسان يمتلك قوة مرتبطة بالقوة العقلية تنهض بدور المنفّذ لقرارات العقل. وتعمل هذه القوة أحيانًا على تنفيذ المشاريع الفكرية والعقلية على الرغم من مخالفة كل

الأهواء والرغبات والنزعات الطبيعية.

طبيعة مرحلة الشباب تدفع ـ الطالب الجامعي مثلا ـ نحو النوم والأكل والشرب والراحة واللهو واللعب، لكن العقل المدبّر يرسم أمام هذا الطالب العاقبة السيئة لهذه الأعمال، كما يرسم أمامه المستقبل المشرق للجهود والأتعاب والترفّع عن الشهوات، ويأمره أن يختار الطريق الثاني لما فيه من مصلحة. وحينئذ يفضّل الإنسان اتّباع أوامر عقله على اتّباع أوامر طبيعته.

والمريض ينفر من طعم الدواء المرّ، لكنه يتناوله ويتجرّع مرارته انطلاقا من أوامر العقل المدبر، ومن قوة الإرادة المتحكّمة في الرغبات.

هيمنة العقل والإرادة على طبيعة الإنسان ونزعاتها تزداد كلّما ازدادا قوة.

الإنسان في نشاطاته التدبيرية ينشد دومًا اتّباع نظرية واحدة وخطة مرسومة واحدة.

نشاطات الإنسان التدبيرية تزداد وتفوق نشاطاته الالتذاذية، كلّما تكامل عقله وإرادته، بينما تزداد نشاطات الإنسان الالتذاذية، وتنحسر نشاطاته التدبيرية كلما اقترب من الإطار الحيواني، إذ إن نشاطات الحيوان التذاذية بأجمعها.

قد تصدر من الحيوان أحيانًا نشاطات تستهدف نتائج بعيدة كبناء الوكر والهجرة وعملية التناسل، لكن هذه النشاطات لم

يؤدّها الحيوان عن وعي أو تفكير أو اختيار أو تخطيط للوصول إلى هدف منشود، بل يقوم بها الحيوان انطلاقًا من إلهام جبري وغريزي.

الإنسان قادر على أن يوسّع نطاق نشاطاته التدبيرية ليستوعب هذا النطاق نشاطاته الالتذاذية أيضًا. وحينئذ تنضمّ النشاطات الالتذاذية إلى النشاطات التدبيرية، وتصبح كل لذّة منطوية على مصلحة، ويمسي كل نشاط طبيعي استجابة لنداء العقل إضافة إلى أنه استجابة لنداء الطبيعة. وعندئذ أيضًا، تتطابق الطبيعة والعقل، والرغبة والإرادة.

النشاطات التدبيرية بحاجة إلى الخطة والطريقة والوسيلة لبلوغ الهدف المطلوب إذ إن هذه النشاطات تدور حول أهداف وغايات بعيدة.

عقل الفرد بما يمتلكه من معلومات واطلاعات وتعاليم وقدرة على التشخيص، هو المخطّط والمنظّر والهادي والموجّه للإنسان حين يكون النشاط التدبيري محدودًا بإطار فردي.

هَبْ أن النشاطات التدبيرية للإنسان بلغت الذروة في الكمال، فهي غير كافية لاكتساب نشاطات الإنسان طابعا إنسانيًا.

النشاطات التدبيرية شرط لازم لإنسانية الكائن البشري، إذ إن عناصر العقل والعلم والوعي والتدبير تشكل نصف إنسانية الإنسان، لكنها ليست شرطا كافيًا.

النشاطات الفردية تكتسب صفة إنسانية حين تتجه إلى ارتقاء سلّم السمو الإنساني إضافة إلى اتصافها بالطابع العقلي والإرادي، او حين لا تتعارض هذه النشاطات - على الأقل - مع النزعات الإنسانية السامية. وإلا فان أبشع الجرائم التي يرتكبها الموجود البشري تأتي أحيانا على أثر نشاطات بشرية مقرونة بالتخطيط والتدبير والذكاء وبُعد النظر ولا أدلّ على ذلك من المخططات الاستعمارية الشيطانية.

وورد في المأثور وصفٌ لقوة التدبير البعيدة عن النزعات الإنسانية والإيمانية، والمسخرة لخدمة الاهداف المادية والحيوانية أنها «نُكر» و«شيطنة».

النشاطات التدبيرية ليست إنسانية بالضرورة، بل، إذا دارت حول محور الأهداف الحيوانية، تصبح خطرة، أين منها خطورة الحيوان المفترس!!

الحيوان المفترس قد يفتك بإنسان إشباعًا لجوعته، أما الإنسان فقد يسخّر قوته التدبيرية لإبادة المدن الآمنة، وإزهاق أرواح ملايين الأفراد الأبرياء.

دعنا عن الصفة الإنسانية للنشاطات البشرية، ولنطرح هذا السؤال: هل بمقدور القوة العقلية أن تؤمّن جميع المصالح الفردية؟

لا أحد يشك في ضرورة القوة العقلية والفكرية وفائدتها في إدارة الشؤون الفرعية المحدودة في الحياة.

الإنسان يواجه دائمًا في حياته أمورًا مثل اختيار الصديق وانتخاب الفرع الدراسي وانتخاب الزوج، واختيار المهنة، ومثل السفر والمعاشرة والتنزه، وأعمال البر، ومكافحة الانحرافات.. وغيرها من الشؤون الحياتية.

وليس ثم شك في حاجة الإنسان إلى التفكير في جميع هذه الأمور، إذ سيحقّق مزيدًا من النجاح في أعماله هذه ان ازداد تأمّلاً وتفكيرًا، فعن طريق التفكير يخطط الموجود البشري لأعماله، ثم ينفّذها ويحتاج أحيانًا في هذا المجال إلى الاستفادة من تفكير الآخرين وتجاربهم (مبدأ المشاورة).

هذا على صعيد الأمور الفرعية

وهل هذا الأمر يتيسر للإنسان على صعيد المسائل العامة لحياته الشخصية؟

هل تستطيع القوة العقلية أن تخطط لجميع جوانب الحياة الشخصية للإنسان، وتحقق له السعادة في جميع هذه الجوانب، أم إن قدرة هذه القوة محدودة بالشؤون الفرعية؟

نعلم أن بعض الفلاسفة اعتقدوا بهذا «الاكتفاء الذاتي»، وادّعوا أنهم اكتشفوا سرّ سعادة الإنسان وشقائه، وأكدوا قدرتهم على إسعاد أنفسهم بالاعتماد على العقل والإرادة. ومن جهة أخرى، نعلم أيضا أننا لا نستطيع العثور على فيلسوفين متفقين في تشخيص طريق السعادة.

مفهوم السعادة الذي يبدو واضحًا جليًا في البداية باعتباره الهدف النهائي للموجود البشري هو من أعقد المفاهيم وأكثرها غموضًا.

حين تطرح الأسئلة عن معنى السعادة وعوامل تحقيقها، وعن معنى الشقاء وعوامله، تتضارب الأجوبة وتتناقض حتى يمكن القول إن الجواب على مثل هذه الأسئلة لايزال غامضًا مبهمًا.

سبب الغموض يعود إلى أن أبعاد الموجود البشري وإمكاناته وقدراته لاتزال مجهولة ولا يمكن التوصل إلى فهم معنى السعادة وسبل تحقيقها مادام الإنسان مجهولاً.

وأكثر من هذا، فالإنسان موجود اجتماعي، والحياة الاجتماعية تخلق للإنسان المشاكل والملابسات، وعليه أن يتخذ موقفًا منها.

الإنسان - باعتباره موجودًا اجتماعيًا - لا يستطيع أن ينشد سعادته مستقلا عن الآخرين، بل إن سعادته وكل ما يتعلق بهذه السعادة من سبل ووسائل ومعايير ترتبط ارتباطًا كبيرًا بسعادة الآخرين وسبلهم ووسائلهم ومعاييرهم. على الفرد - إذن - أن يبحث عن سعادته على طريق سعادة المجتمع وتكامله.

ولو أخذنا بنظر الاعتبار مسألة الحياة الأبدية، وخلود الروح، وعدم انطواء العقل على تجربة عن حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، فإن المسألة تصبح معقدة للغاية.

من هنا تفرض العقيدة أو الإيديولوجية نفسها باعتبارها ضرورة لامناص منها، من أجل سدّ الحاجة إلى نظرية عامة وتخطيط شامل منسّق منسجم، يضمن تحقيق سعادة المجموع وبلوغ الهدف الأساس للكمال الإنساني، وينطوي على الأهداف والوسائل وطرق العلاج ومعايير الصحة والخطأ والمسؤوليات والواجبات وعوامل دفع الأفراد نحو تحمل المسؤوليات والواجبات.

احتاج الإنسان إلى الايديولوجية - أو إلى الشريعة على حدّ التعبير القرآني - منذ بدء وجوده على ظهر الأرض، أو منذ الفترة التي اتسعت فيها حياته الاجتماعية وأدّت إلى الاختلافات[1].

وهذه الحاجة ازدادت بمرور الزمن كلّما ازداد نضج الإنسان وتكامله.

كانت أواصر الدم والعنصر والقومية والقبلية والوطنية تشكل فيما مضى «روحًا جماعية» تهيمن على المجتمعات البشريّة.

وكانت هذه الروح تفرز بدورها مجموعة من الأهداف الجماعيّة (وإن كانت غير إنسانية) وتضفي على المجتمع اتجاهًا موحّدًا.

---

١ - يستنبط من آيات القرآن الكريم أن هذه الاختلافات وهذه الحاجة ظهرت منذ عصر النبي نوح. والأنبياء الذين سبقوه لم يكونوا أصحاب شريعة. راجع تفسير (الميزان) للآية الكريمة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ..﴾ (البقرة/٢٣١).

نمـو الإنسـان وتكاملـه العلمـي والعقلـي أدّى إلى ضـعف تلـك الأواصر و وهنها. العلم يميل إلى الفردية بحكم خاصيته الذاتية، ويؤدي إلى ضعف العواطف ووهن الأحاسيس.

البشرية اليوم ـ ومن الأولى بشرية الغد ـ بحاجة إلى ما يوحّد اتجاهها.

ويمنحها أهدافًا مشتركة ويقدّم لها معايير للخير والشر. أي إنها بحاجة إلى فلسفة منتخبة واعية هادفة منطقية للحياة.. بحاجة إلى إيديولوجية كاملة شاملة.

البشرية اليوم بحاجة إلى مثل هذه الفلسفة للحياة أكثر مما مضى، فلسفة قادرة على أن تربط الفرد بحقائق تسمو على الفرد وعلى المصالح الفردية. ليس ثمة شك أن العقيدة والإيديولوجية اليوم من ضرورات الحياة الاجتماعية.

مَن القادر على تخطيط مثل هذه المدرسة الفكرية؟ عقل الفرد الواحد غير قادر على ذلك قطعًا.

هل عقل المجموع قادر على مثل هذه العملية؟

هل الإنسان قادر على وضع خطة شاملة للإيديولوجية المطلوبة بالاستفادة من مجموع تجارب الماضين والمعاصرين؟

لو علمنا أن الإنسان ذاته من أعقد المجهولات، فمن الطبيعي أن يكون المجتمع الإنساني وسعادته أكثر تعقيدًا وغورًا في المجهول.

فما العمل إذن؟

لو كانت لدينا النظرة الصحيحة عن الكون والحياة.. ولو اعتبرنا نظام الوجود متعادلاً متوازنًا ورفضنا وجود العبث والفراغ في هذا النظام.. لما بقي أمامنا إلا الاعتراف بأن جهاز الخليقة العظيم لم يترك هذه الحاجة الكبرى هملاً، بل قدم الأطروحة اللازمة من أفق يسمو على أفق العقل الإنساني، أي من أفق الوحي (مبدأ النبوة).

عمل العلم والعقل هو الحركة ضمن إطار هذه الأطروحة.

ما أجمل ما قاله أبوعلي بن سينا في حديثه عن حاجة البشر إلى الشريعة الإلهية عن طريق النبي في كتاب النجاة:

«فالحاجة إلى هذا الإنسان - أي النبي - في أن يبقى نوع الإنسان، ويتحصل وجوده أشدّ من الحاجة إلى إنبات الشعر على الحاجبين، وتقعير الأخمص من القدمين، وأشياء أخرى من المنافع التي لا ضرورة إليها في البقاء، بل أكثر مالها أنها تنفع في البقاء».

أي إن جهاز الخليقة العظيم لم يهمل الاحتياجات الصغيرة غير الضرورية، فكيف يهمل أكثر الاحتياجات ضرورة.

أما إذا عدمنا النظرة الصحيحة للكون والحياة، فعلينا التسليم بأن الإنسان محكوم عليه بالحيرة والضياع، وكل أطروحة أو ايديولوجية تصدر عن هذا الإنسان الحائر في هذه الطبيعة المدلهمّة إنما هي إيغال وتخبّط في الحيرة والضياع.

مما تقدم تتضح ضرورة وجود العقيدة أو الإيديولوجية، كما

تتضح أيضا ضرورة انتماء الفرد لعقيدة وإيديولوجية.

غير أن انتماء الفرد لإيويولوجية معينة لا يمكن أن يكون واقعيًا إلا إذا اتخذ طابع «الإيمان». والإيمان حقيقة لا يمكن تحققها عن طريق القوة وبدافع المصلحة. يمكن الخضوع والتسليم لأمر بالقوة، لكن الإيديولوجية لا تتناسب مع الخضوع. الإيديولوجية تتطلب الإيمان والقبول والانجذاب.

الايديولوجية الفاعلة ينبغي أن تستند من جهة إلى تصور بمقدوره أن يقنع العقل ويغذّي الفكر.

وينبغي أن تكون - من جهة أخرى - قادرة على أن تفرز من تصوراتها أهدافًا جذابة رائعة. وفي هذه الحالة يجتمع العشق والاقتناع باعتبارهما عنصرين أساسيين للإيمان، ليساهما في بناء العالم.

وهنا لابد من الإشارة - ولو باختصار - إلى عدد من المسائل، تاركين تفاصيلها إلى فرصة أخرى:

الف - الإيويولوجيات على نوعين: إنسانية وفئوية

الإيديولوجيات الإنسانية هي التي تخاطب الإنسان بما هو إنسان، لا باعتبار انتمائه القومي والطبقي. وتستهدف نجاة النوع الإنساني ، لا نجاة فئة أو طبقة معينة. وأطروحة هذه الإيديولوجية تستوعب جميع البشرية، لاجماعة معينة. ودعاتها وأتباعها ومناصروها ينتمون إلى شعوب وعناصر وطبقات وفئات متعددة.

الإيديولوجية الفئوية ـ على العكس من الأولى ـ تخاطب فئة أو طبقة أو مجموعة خاصة، وتدعو إلى إنقاذ تلك الفئة الخاصة أو سيادتها أو تعاليها. ولا تكسب لها أنصارًا وحماة وجنودًا إلا من تلك الفئة.

كل واحدة من هاتين الإيديولوجيتين تستند إلى نظرة خاصة للإنسان.

الإيديولوجية العامة والإنسانية – كالإيديولوجية الإسلامية – تستند إلى نوع من التصور للإنسان هو ما نعبّر عنه بالفطرة.

الإسلام ينظر إلى الإنسان باعتباره موجودًا يحمل في طينته بعدًا وجوديًا خاصًا ومواهب سامية تميزه عن الحيوان وتمنحه هوية خاصة. وهذه الهبات الخاصة للإنسان مقدمة على تأثير العوامل التاريخية والاجتماعية على الكائن البشري.

النظرة الإسلامية ترى أن الإنسان يتمتع في أصل خلقته بشعور خاص وبوجدان نوعي. وهذا الوجدان الفطري هو الذي يضفي على الإنسان نوعه الخاص، ويجعله مؤهّلا للدعوة والخطاب والحركة.

الإيديولوجيات الإنسانية تنطلق في دعوتها ـ إذن ـ من الوجدان الفطري الذي يختص بالنوع الإنساني، وتخلق التحرك.

أما الايديولوجيات الفئوية فلها نظرتها الأخرى للإنسان. إنّها ترفض أن يكون الإنسان النوعي مؤهّلاً للدعوة والخطاب والتحرك. إذ تعتقد أن شعور الإنسان ووجدانه واتجاهاته تتبلور

تحت تأثير العوامل التاريخية في الحياة الوطنية والقومية، أو تحت العوامل الاجتماعية في المكانة الطبقية.

الإنسان المطلق - بغض النظر عن العوامل التاريخية أو الاجتماعية الخاصة - ليس له شعور ولا وجدان ولا يتمتع بصلاحية الدعوة والخطاب، بل هو موجود انتزاعي لا عيني.

الماركسية وكذلك الفلسفات القومية والعنصرية تقوم على أساس هذه النظرة للإنسان.

منطلق هذه الفلسفات هو المصالح الطبقية، أو المشاعر القومية والعنصرية، أو الثقافة القومية على أحسن تقدير.

الإيديولوجية الإسلامية هي دون شك من النوع الأول، ومنطلقها الفطرة الإنسانية. ولهذا فهي تخاطب الناس (عامة الأفراد)[1]، لا طبقة معينة أو فئة خاصة.

---

١ - كلمة «الناس» في القرآن الكريم يساء فهمها أحيانا، وتفسر على أنها تعني الجماهير، أي الطبقة المقابلة للطبقات الممتازة، وهذا الفهم الخاطئ لمعنى الكلمة يؤدي إلى فهم خاص لاتجاه الإسلام. فيقال خطأ: أن الإسلام خاطب «الناس» في نصوصه، ولذلك فهو دين الجماهير الكادحة. ويحسبون تلك فضيلة من فضائل الإسلام!!.

ولكن الواقع ليس كذلك، اذ ان الإسلام هب للدفاع عن الجماهير الكادحة - وهذه هي إحدى فضائله حقاً- لكنه لم يقتصر خطابه على هذه الطبقة، وليست إيديولوجيته فئوية أو طبقية.

ولقد حقق الإسلام معجزته بالفعل حين استطاع بالاعتماد على الفطرة الإنسانية، أن يصير أحيانًا من أفراد منتمين إلى طبقات مرفهة مستثمرة، حماة للطبقة المحرومة الكادحة.

الإسلام استطاع عمليًا أن يكسب له أنصارًا بين جميع الطبقات، حتى الطبقات التي حاربها وقارعها مثل «الملأ» و«المترفين» على حد التعبير القرآني.

ولقد شهد التاريخ الإسلامي صورًا كثيرة من عمليات التغيير التي نهض بها الإسلام متحديًا كل الحواجز الطبقية، فاستنهض أفرادًا ليثوروا على طبقتهم بالذات، ودفع بمجموعة لأن تثور ضد مصالحها! بل دفع بالفرد لأن يثور على آثام نفسه!! فالإسلام - باعتباره دينًا سماويًا - ينفذ إلى أعماق الإنسان، ويعتمد - من جانب آخر - على الفطرة الإنسانية، ومن هنا كان هذا الدين قادرًا على استنهاض الفرد ضد آثام نفسه، وعلى إشعال نار الثورة الداخلية في وجوده، وهذه هي عملية «التوبة».

القدرة الثورية للإيديولوجيات الفئوية والطبقية تنحصر في إثارة فرد ضدّ فرد آخر، أو طبقة ضد طبقة أخرى. لكنها غير قادرة إطلاقًا على إعلان الثورة الذاتية، وغير قادرة أيضًا أن تخلق الرقابة في نفس الإنسان كي يستطيع الفرد أن يراقب نفسه بنفسه.

الإسلام باعتباره خاتم الرسالات السماوية، يستهدف - أكثر من بقية الأديان - إقامة العدالة الاجتماعية[1]، ولذلك يتجه نحو إنقاذ المحرومين والمستضعفين ومقارعة الظالمين. لكن نداء

---

١ - ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد/٢٥).

... ﴿قُل أمر ربّي بالقسط....﴾ (الاعراف/ ٧٩).

الإسلام لا يقتصر على المحرومين والمستضعفين، كما أن الأنصار الذين كسبهم الإسلام إلى صفه لم يكونوا جميعًا من هذه الطبقة. بل استطاع الإسلام، بالاعتماد على قوة الدين وعلى الفطرة الإنسانية، أن يكسب له انصارًا من بين الطبقات التي أعلن ثورته عليها، كما يشهد بذلك التاريخ.

الإسلام نظرية انتصار الروح الإنسانية على الروح الحيوانية.. وانتصار العلم على الجهل، وانتصار العدل على الظلم، وانتصار المساواة على التمييز، وانتصار الفضيلة على الرذيلة، وانتصار التقوى على التحلل، وانتصار التوحيد على الشرك.

انتصار المستضعفين على الجبابرة المستكبرين واحد من مظاهر ومصاديق هذه الانتصارات.

ب ـ إتماما لبحثنا السابق، ينبغي أن نطرح هنا مسألة ماهية الثقافة الإنسانية الأصيلة، ونسأله هل هناك ثقافة موحّدة؟ أم إن الثقافات ذات ماهيات قومية أو وطنية أو طبقية مختلفة.

هذه المسألة ترتبط أيضا بنظرتنا إلى الإنسان. فإذا آمنا بوجود الفطرة الإنسانية الأصيلة الموحدة بين أبناء البشر، آمنا أيضا بالثقافة الإنسانية الموحدة. وإذا رفضنا وجود مثل هذه الفطرة لزمنا الإيمان بأن الثقافات وليدة العوامل التاريخية والقومية والجغرافية والاتجاهات المصلحية الطبقية.

التصور الإسلامي يؤكد على الفطرة الموحدة، ومن هنا يساند فكرة الإيديولوجيات الموحدة والثقافة الموحدة.

ج ـ طبيعي أن الإيديولوجية الوحيدة التي تستطيع أن تكون

ذات ماهيــة إنســانية وتقــوم علــى أســاس القــيم الإنســانية هــي الإيديولوجيــة الإنســانية لا الفئويــة، هــي الإيديولوجيــة الموحــدة لا القائمة على أساس تجزئة الإنسان، هي الإيديولوجية الفطرية لا المصلحية.

د ـ ذكرنا أن الإسلام يتجاوز الأطر القومية والوطنية والطبقية، ويعلن أيديولوجيته الموحدة للناس كافة. وتبقى مسألة خضوع الإيديولوجية للظروف الزمانية والمكانية.

والسؤال المطروح في هذا المجال هو: هل إن الإيديولوجية خاضعة لمبدأ النسخ والتبديل بتبدل الظروف الزمانية والمكانية أم إنها مطلقة في كل زمان ومكان وغير خاضعة للنسبية الزمكانية؟

الجواب على هذا السؤال يرتبط بفهمنا لمنطلق الإيديولوجية، هل هذا المنطلق هو الفطرة الإنسانية أم المصالح الفئوية والمشاعر القومية والطبقية؟

كما يرتبط أيضا بفهمنا لطبيعة التغييرات الاجتماعية، هل إن ماهية المجتمع البشرى تتغير بتغير مراحل التاريخ، أم إن المجتمع البشري يتطور وفق قوانين تكاملية ثابتة، ويتحرك على مدار ثابت؟!

البحث في هذه المسائل يتطلب توضيح مسألة «الفطرة الانسانية» وتوضيح طبيعة التطورات الاجتماعية. وهو بحث مسهب، نرجئه إلى كتاب *المجتمع والتاريخ* في كتب «التصور

الإسلامي» حيث ندرس علاقة التغيير الاجتماعي بالفطرة الإنسانية.

هـ - ثمة مسألة أخرى يمكن طرحها في هذا المجال ترتبط بثبات الايديولوجية وتغييرها في الظروف الزمانية والمكانية.

لقد أشرنا من قبل إلى مسألة نسخ الإيديولوجيات وتغيرها كليًّا حسب الظروف الزمكانية. وهنا نطرح مسألة التغيير في محتوى الإيديولوجية ونتسال: هل إن هذا المحتوى مطلق أم نسبي؟ عام أم خاص؟ هل إن الإيديولوجية - باعتبارها ظاهرة من الظواهر - خاضعة للتطور والتغير، وبالتالي إلى إعادة النظر والتعديل، كما هو مشهود في عالم الإيديولوجيات المادية؟ وهل بالإمكان أن تكون الإيديولوجية متضمنة للخطوط العامة لحركة الإنسان والمجموعة الإنسانية، دون أن تحتاج - في الظروف المختلفة - إلى إصلاح وتعديل[1]؟

لو كان ذلك ممكنًا، لكان دور القادة الفكريين هو «الاجتهاد» في محتوى تلك الإيديولوجية ضمن إطار الخطوط العامة. والتكامل الإيديولوجي يتم حينئذ عن طريق الاجتهادات، لا عن طريق تعديل نفس الإيديولوجية.

---

١ - تحدثت في رسالة مستقلة تحت عنوان «ختم النبوة» عن خلود الإيديولوجية الإسلامية وثباتها في الظروف المختلفة، ودور الاجتهاد في تطبيق الرسالة في الظروف المختلفة (المؤلف). راجع دور «منطقة الفراغ» في التطبيق العملي للرسالة الإسلامية، إقتصادنا، الشهيد الصدر (المعرب).

عالم الآخرة في رؤية الشهيد مطهري

• كل أعمال الإنسان تصبح محضرة مرئية في نشأة القيامة • الإنسان باق وخالد، وأعمال الإنسان وآثاره باقية ومدوّنة وخالدة • هذه الحياة تتطلب العمل وغرس البذور وإعداد الأرضية اللازمة، وتلك حياة جني الثمار والعيش في الأرضية المعدّة • شعور الإنسان ووعيه وباصرته وإدراكه في ذلك العالم أقوى بكثير من هذا العالم • أهل الجنة لا يشعرون مللاً ولا سأمًا من حياتهم الخالدة في النعيم

يقول الأستاذ الشهيد:

المسألة الأساسية التي ركّزت عليها الكتب السماوية هي العلاقة بين الحياتين. ليس بين هاتين الحياتين انفصال، بذرة تلك الحياة يغرسها الإنسان بيده في هذه الحياة، ومصير الإنسان في تلك الحياة يقرّره الإنسان بنفسه في هذه الحياة.

الإيمان، والاعتقاد الصحيح الواقعي، والخلق الإنساني الرفيع البعيد عن الحسد والمكر والخداع والحقد والغش، وكل الأعمال الصالحة المتجهة نحو خدمة الفرد والمجتمع كالخدمات

والخيرات والمبرات وأمثالها، تصنع حياة سعيدة خالدة للإنسان. على العكس من ذلك فقدان الإيمان والاعتقاد الصحيح، والأخلاق السيئة، والذاتية والأنانية، والظلم، والرياء، وابتزاز الأموال، والكذب والتهمة، والخيانة، والغيبة، والنميمة، والاستنكاف عن العبادة وأمثالها، تؤدي إلى حياة شقيّة للإنسان في الحياة الأخرى.

رسول الله(ص) يعبّر عن هذه العلاقة قائلا: «الدنيا مزرعة الآخرة». فكل بذرة صالحة كانت أم طالحة تؤتي أكُلها في ذلك العالم. كما أن من المحال أن يحصد الإنسان في هذه الدنيا قمحًا إذا زرع شعيرًا، أو أن يحصد حنظلا إذا زرع تمرًا، كذلك من المحال أن يزرع الإنسان في هذه الدنيا بذور الخير ويحصد في تلك شرًا، والعكس صحيح أيضًا.

خلود الأعمال وتجسّمها

يُفهم من القرآن الكريم والمرويّ عن أئمة الدين، أن عمل الإنسان باق لا ينمحي أو يزول بل يبقى ويخلد كبقاء الإنسان وخلوده، وكل أعمال الإنسان تصبح محضرة مرئية في نشأة القيامة. فأعمال الإنسان الخيرّة تتجسّم بصورة جميلة رائعة تبعث على اللذة والانشراح، وأعماله الشريرة تتجسّم بشكل قبيح

مزعج يبعث على الألم والعذاب[1].

نكتفي هنا بذكر بعض الآيات والروايات بهذا الشأن:

١. ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أن بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران/ ٣٠).

هذه الآية تصرح بأن الإنسان يرى في يوم القيامة عمله ماثلاً أمامه، خيرًا كان أم سوءًا، وأن الإنسان يشمئزّ من عمله السوء المحضر أمامه، حتى يودّ أن يهرب منه، ولات حين فرار. العمل المحضر أمام الإنسان هو جزء من وجود الإنسان لا ينفصل عنه.

٢ - ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ (الكهف/ ٤٩).

وهذه الآية تفيد نفس مفهوم الآية السابقة.

٣ - ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

الإنسان باق وخالد، وأعمال الإنسان وآثاره باقية ومدوّنة وخالدة، والإنسان يعيش في الحياة الأخرى بأعماله وأخلاقه وما كسبت يداه في الحياة الدنيا. وسواء كانت هذه الأعمال والمكتسبات صالحة أم سيئة فإنها تكون الصاحب الدائمي الصالح أو السيء للإنسان في الحياة الأخرى.

---

١ - راجع كتاب «عدل الهي» = العدل الإلهي، وفيه أوضحنا أن «النعيم» و«الجحيم» ليسا إلا صورًا ملكوتية للأعمال.

أما الاحاديث[1]:

١ـ قال رسول اللّه(ص): «أما إن اللّه عزّ وجّل كما أمركم أن تحتاطوا لأنفسكم وأديانكم وأموالكم باستشهاد الشهود العدول عليكم، فكذلك قد احتاط على عباده ولكم في استشهاد الشهود عليهم. فللّه على كلّ عبد رقباء من كل خلقه ومعقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر اللّه ويحفظون ما يكون منه من أعماله وأقواله وألفاظه وألحاظه والبقاع التي تشتمل عليه شهود ربه، له أو عليه، والليالي والأيام والشهور شهود عليه أو له، وسائر عباد اللّه المؤمنين شهود عليه أوله، وحَفَظَتَه الكاتبون أعماله شهود له أو عليه»[2].

٢ - قال أبو ذر(رض) سمعت رسول اللّه(ص) يقول: «حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مرّ الوَصول للرحم المؤدّي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم، لم ينفعه معهما عمل، وتكفأ به الصراط في النار»[3].

٣ - عن أبي جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ يقول: «خيره وشره معه حيث

---

١ - لم يذكر الأستاذ الشهيد سوى حديثٍ واحدٍ بشأن خلود الأعمال وتجسّمها، وفاته أن يذكر البقية، ولذلك راجعت بحار الأنوار للعلامة المجلسي واستخرجت منه الأحاديث التي يراها القارئ الكريم.

٢ - البحار، ج٧، ص ٣١٥، ط طهران، ١٣٧٧هـ .

٣ - المصدر نفسه، ج ٨، ص ٦٧ .

كان، لا يستطيع فراقه حتى يعطى كتابه يوم القيامة بما عمل»[1].

٤ - عن المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبدالله(ع) عن الصراط فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله عزوجل، وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة. فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفروض الطاعة، ومن عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم»[2].

٥ - عن زيد بن علي عن النبي(ص) «يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعًا لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلتهبان نارًا حتى يلهبا جسده، ثم يقال له: هذا الذي كان في الدنيا ذا الوجهين ولسانين، يعرف بذلك يوم القيامة»[3].

مقارنة بين الحياتين

تشترك الحياة الدنيا والحياة الآخرة في كونهما حياتين حقيقيتين وواقعيتين. الإنسان في كلا الحياتين يعي على نفسه وعلى ما يرتبط به.

---

١ - المصدر نفسه ، ج ٧، ص ٣١٢ .

٢ - المصدر نفسه ، ج ٨، ص ٦٦.

٣ - المصدر نفسه ، ج ٧، ص ٢١٨.

وفي كليهما لذة وعناء وفرح وحزن وسعادة وشقاء. غرائز الإنسان بما فيها الغرائز الحيوانية والغرائز الإنسانية الخاصة تتحكم في كلا الحياتين. يعيش الإنسان في الحياتين بجسده وأعضائه وجوارحه، وفي كلا الحياتين فضاء وكواكب. ولكن بين الحياتين اختلافات أساسية:

في هذه الحياة الدنيا توالد وتناسل وطفولة وشباب وشيخوخة ثم موت، ولا وجود لمثل هذا هناك.

هذه الحياة تتطلب العمل وغرس البذور وإعداد الأرضية اللازمة، وتلك حياة جني الثمار والعيش في الأرضية المعدّة.

في هذه الحياة تتوفر إمكانية تغيير المسير والمصير من قبل الإنسان نفسه عن طريق تغيير اتجاه حركته وعمله، ولا وجود لمثل هذا الإمكان في تلك الحياة.

الحياة هنا ممزوجة بالموت ومقرونة بالمادة الفاقدة للحياة، ولا توجد هناك سوى الحياة المحضة، وكل ما يحيط الإنسان هناك له حياة ووعي وأحساس.

تتحكم هنا الأسباب والعلل والظروف الخاصة الزمانية، وتوجد هنا الحركة والتكامل، وهناك يتجلّى فقط الملكوت الإلهي والإرادة الإلهية.

شعور الإنسان ووعيه وباصرته وإدراكه في ذلك العالم أقوى بكثير من هذا العالم. وبعبارة أخرى ترتفع في تلك الحياة السُّتُر

والحجب عن عين الإنسان، فيدرك الحقائق بعمق، كما يقول تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق/٢٢).

الحياة الدنيا مقرونة بالتعب والملل، خاصة بسبب فقدان التنوع فيها. الإنسان في هذه الحياة حائر يبحث عن شيء مفقود، وما إن يصل إلى هدف من أهدافه حتى يظنه أنه الشيء الذي كان يبحث عنه، فيركن إليه، لكنه يحسّ بعد برهة أن هذا الذي ناله ليس بمطلوبه، فيعود إليه الشعور بالتعب والملل ويبدأ بالبحث عن هدف آخر.. وهكذا يظلّ الإنسان في الحياة الدنيا يبحث دومًا عن شيء لم ينله، ويسأم مما ناله. أما الحياة الأخرى، فهي لصيقة بأعماق فطرة الإنسان وشعوره الشخصي، وهي الحقيقة التي طالما بحث عنها، أي الحياة الخالدة إلى جوار رب العالمين. من هنا لا يحسّ الإنسان فيها تعبًا ولا سأمًا، والقرآن الكريم يشير إلى هذه المسألة إذ يقول: ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا﴾(الكهف/ ١١٠).

أي إن أهل الجنة لا يشعرون مللاً ولا سأمًا من حياتهم الخالدة في النعيم. أضف إلى ذلك أن أهل الجنة لا يتألمون لشيء لم ينالوه، فإرادة الله شاءت أن يتوفّر لهم كل ما أرادوه.

طبيعة المجتمع البشري
في رؤية الشهيد مطهري

• الروح الجماعية لا تنفك عن الإنسان، وتتجلّى دومًا في الأخلاق والدين والعلم والفلسفة والفن • القرآن لا يطرح المسائل كما يطرحها كتاب علمي أو فلسفي بشري، بل يطرحها بشكل آخر • القرآن الكريم يرى أن للامم (المجتمعات) مصيرًا مشتركًا، وصحيفة أعمال مشتركة، وفهمًا وشعورًا وعملاً وطاعة وعصيان • القرآن الكريم يتحدث في بعض آياته عن عمل فرد وينسبه إلى جميع مجتمع ذلك الفرد • الناس يجتمعون على الرضا عن فعل أو السخط على فعل • في القرآن تُنسب أحيانا أعمال جيل معين إلى الأجيال التالية

يقول الأستاذ الشهيد:

المجتمع مركب من الأفراد. ولا يمكن لمجتمع أن يوجد دونما أفراد. وهنا نريد أن نبين نوع هذا التركيب، ونوع العلاقة بين الفرد والمجتمع.

نذكر هنا عدّة نظريات بهذا الصدد:

الف) تركيب المجتمع من الأفراد تركيب اعتباري، أي أنّه لم

يحدث في الواقع أي تركيب، لأن التركيب الواقعي يحدث عند تفاعل عدة عناصر مع بعضها، بحيث تفقد العناصر خصائصها وينتج مركب يحمل صفات جديدة، كما يحدث في التفاعلات الكيمياوية كتفاعل الاوكسجين والهيدروجين لتوليد مادة جديدة ذات خصائص معينة هي الماء.

التركيب الحقيقي يتطلب إذن فقدان خواص العناصر الداخلة في المركّب، بينما الأفراد لا يتفاعلون بهذا الشكل، ولا يفقدون خصائصهم الذاتية في المجتمع.

فالمجتمع لا يملك إذن وجودًا أصيلا وعينيًا وحقيقيًا، بل الفردُ يملك وحده مثل هذا الوجود، ووجود المجتمع لا يعدو أن يكون اعتباريًا انتزاعيًا.

أفراد المجتمع لا يشكّلون مركّبًا حقيقيًا على الرغم من أن حياتهم في المجتمع ذات شكل اجتماعي وماهية اجتماعية.

ب) المجتمع مركب حقيقي، لا كالمركّبات الطبيعية، بل مركب صناعي. والمركب الصناعي مركب حقيقي وإن لم يكن مركبًا طبيعيًا، وهو نظير ماكنة ذات أجزاء مترابطة.

في المركّب الطبيعي تفقد الأجزاء خصائصها في «الكل» المركّب، كما تفقد قهرًا استقلالها في التأثير، لكنّ الأجزاء في المركب الصناعي لا تفقد خصائصها وهويتها، بل تفقد استقلالها في التأثير.

المركّب الصناعي ذو أجزاء مرتبطة مع بعضها ارتباطًا خاصًا

بحيث أن خصائص آثاره ليست بمجموع خصائص آثار أجزائه مستقلة. فالسيارة مثلاً تنقل الأشخاص أو الأشياء من مكان إلى آخر، وهذه الخاصية لا ترتبط بجزء معين من أجزاء السيارة، وليست هي أيضا بمجموع آثار الأجزاء وهي في حالة استقلال وعدم ارتباط.

التعاون والترابط والتعاضد الجبري موجود بين أجزاء السيارة، ولكن هوية الأجزاء غير ذائبة في هوية الكل.. الكلّ لا يملك وجودًا مستقلاً عن الأجزاء. الكلّ عبارة عن مجموع الأجزاء إضافة إلى الارتباط الخاص بينها.

المجتمع كذلك أيضا، إنه مكوّن من مرافق ومؤسسات أصلية وفرعية، وهذه المؤسسات الاجتماعية بأفرادها، مترابطة مع بعضها، وكل تغيير يطرأ على واحدة من هذه المؤسسات الثقافية أو الدينية أو الاقتصادية أو السياسية أو القضائية أو التربوية. يؤدي إلى تغيير في المرافق والمؤسسات الاخرى. والحياة الاجتماعية تظهر باعتبارها أثرا قائمًا بكل الماكنة الاجتماعية، دون أن يفقد الأفراد هويتهم في المجتمع العام وفي المرافق والمؤسسات الاجتماعية.

ج) المجتمع مركب حقيقي من أنواع المركبات الطبيعية، لكنّه تركيب بين الأرواح والأفكار والعواطف والتطلعات والإرادات، أي إنه تركيب ثقافي لا تركيب بين الأجسام والأجساد. فكما أن العناصر المادية تتفاعل لتوليد مركب ذي

خصائص جديدة، كذلك أفراد البشر، يدخلون معترك الحياة بما جُهزوا به من قدرات فطرية، وقدرات اكتسابية من الطبيعة، فيندمجون روحيًا، ويشكّلون روحًا جديدة يطلق عليها اسم «الروح الجماعية».

وهذا التركيب هو تركيب طبيعي فريد لا نستطيع أن نجد له نظيرًا. فهو طبيعي لأنه ناتج عن تفاعل عناصر متعددة لانتاج مركب ذي هوية جديدة. لكنه يختلف عن المركبات الطبيعية في عدم وجود «وحدة» حقيقية واقعية تتصهر فيها الأجزاء.

نحن نعلم أن التركيب الحقيقي يؤدّي إلى تكوين «وحدة» ذات هوية واحدة مشخّصة تتصهر فيها الأجزاء، بينما لا تتكون مثل هذه الوحدة في تركيب الفرد والمجتمع، ولا ينتج «الإنسان الكلّي» الذي تتصهر فيه شخصيات الأفراد، والإنسان الكل ما هو إلا مجموع الأفراد أنفسهم ووجوده اعتباري وانتزاعي.

د) المجتمع مركب حقيقي يفوق المركبات الطبيعية، فالأجزاء في المركبات الطبيعية ذات هوية وخواص معينة قبل التركيب، لكن أفراد البشر لا يملكون أية هوية إنسانية قبل الوجود الاجتماعي، إنهم أوعية خالية مستعدة لقبول الروح الجماعية، وهم حيوانات محضة لها استعداد تقبل الإنسانية.

إنسانية الإنسان، أي «الأنا» الإنسانية، والفكر الإنساني، والعواطف الإنسانية، وكل المشاعر والأحاسيس والرغبات

والتطلعات والأفكار والعواطف المرتبطة بالإنسانية تنشأ في ظل الروح الجماعية، وهذه الروح الجماعية تملأ هذا الوعاء الخالي، وتمنح الفرد شخصيته.

الروح الجماعية لا تنفك عن الإنسان، وتتجلّى دومًا في الأخلاق والدين والعلم والفلسفة والفن. التفاعلات الروحية والثقافية بين الأفراد تحدث في ظل الروح الجماعية لا في مرحلة سابقة عليها. وعِلمُ اجتماع الإنسان مقدم في الحقيقة على علم النفس البشرية. خلافًا للنظرية السابقة التي تعتقد بوجود علم نفس للإنسان في مرحلة سابقة على الوجود الاجتماعي، وتؤمن بأن علم الاجتماع الإنساني يأتي في مرحلة تالية لعلم النفس الإنساني.

هذه النظرية تذهب إلى أن الفرد لا يمكن أن يملك نفسًا فردية وعلمَ نفس فردي إن لم يكن يملك وجودًا اجتماعيًا.

النظرية الأولى: تتجه نحو «أصالة الفرد» اتجاهًا محضًا، فبموجب هذه النظرية، ليس للمجتمع وجود حقيقي ولا قانون، ولا مصير، ولا نظرية للمعرفة. وإنّما الأفراد وحدهم لهم وجود عيني، ويخضعون لنظريات المعرفة، ومصير كل فرد مستقل عن مصير الأفراد الآخرين.

النظرية الثانية: تتجه نحو أصالة الفرد أيضا، فهي تسلب الأصالة والعينية من المجتمع باعتباره وجودًا كليًا، ومن تركيب الأفراد باعتباره تركيبًا واقعيًا. لكن هذه النظرية، تعتقد أن علاقات الأفراد علاقات أصيلة وعينية تشبه العلاقات الفيزيائية.

هذه النظرية، مع إيمانها بأن المجتمع لا يملك وجودًا مستقلاً عن الأفراد، تعتقد أن للأفراد مصيرًا مشتركًا واحدًا. لانهم مرتبطون ارتباطًا علّيًا ميكانيكيا، كارتباط أجزاء المكانة الواحدة. والمجتمع أو هذا الجهاز، ذو الأجزاء المرتبطة ببعضها ارتباطًا ميكانيكيًا، لا يمكن فهمه ومعرفته دون معرفة كلّ واحد من هذه الأجزاء.

النظرية الثالثة: تعتقد بأصالة الفرد وأصالة المجتمع معًا.

فأصالتها الفردية تتجلّى في عدم إيمانها بانصهار أجزاء المجتمع (الأفراد) في الوجود الاجتماعي، وعدم اعتقادها أن المجتمع موجود وحيد يشبه المركبات الكيمياوية.

وأصالتها الاجتماعية تظهر في قولها إن تركيب الأفراد في المجالات الروحية والفكرية والعاطفية هو من نوع التركيبات الكيمياوية يجد فيه الأفراد هوية جديدة هي هوية المجتمع، وإن لم يكن للمجتمع هوية منفردة.

وبناء على هذه النظرية، تبرز على أثر تفاعل أجزاء المجتمع، حقيقية جديدة حيّة، تتمثل في الروح والشعور والوجدان والإرادة والتطلعات الجديدة، إضافة إلى ماللأفراد من وجدان وإرادة وأفكار ومشاعر فردية. وتلك الروح الجديدة لها الغلبة على الروح الفرديّة.

النظرية الرابعة: تتجه اتجاهًا محضًا نحو أصالة المجتمع، وبناءًا على هذه النظرية، فإنه لا يوجد شيء سوى الروح الجماعية

والـروح الاجتماعيـة، والوجـدان الاجتمـاعي والارادة والتطلعـات الجماعية و(الأنا) الجماعية. والمشاعر الفردية ليست الا مظهرًا من مظاهر المشاعر الاجتماعية.

آيـات القـرآن الكـريم تتجـه نحـو تأييـد النظريـة الثالثـة. ولقـد ذكرنا من قبل، أن القرآن لا يطرح المسائل كما يطرحها كتاب علمي أو فلسفي بشري، بل يطرحها بشكل آخر.

والقـرآن، حـين يتحـدث عـن المسـائل المرتبطـة بـالفرد والمجتمـع، يتجه نحو ما يؤيد النظرية الثالثة.

القرآن الكريم يـرى أن للامـم (المجتمعـات) مصيـرًا مشـتركًا، وصـحيفة أعمـال مشـتركة، وفهمًـا وشـعورًا وعمـلاً وطاعـة وعصيان[1].

ومن الطبيعي أن المصير والفهم والشعور والطاعة والعصيان لا يمكـن أن تنسـب للأمـة، إن لم يكـن للمجتمـع وجـود عيني. هـذه النسبة تدل أن القرآن يعترف بنوع من الحيـاة هـي الحيـاة الجماعيـة والاجتماعية. والحياة الجماعية ليست تشبيهًا وتمثيلاً، بل حقيقـة، كما أن الموت الجماعي حقيقية أيضا.

يقول تعـالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾(الاعراف/٣٤).

هذه الآية تتحدّث عـن لحظـة انتهـاء حيـاة الأمـة، وهـي لحظـة لا

---

١ - راجع الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي، ج ٤: ص ١٠٤

تتقدم ولا تتأخّر، وهذه الحياة ترتبط بالأمة لا بالأفراد، إذ ان موت الأفراد لا يتم في لحظة معينة، بل بشكل متناوب وبمرور الزمن.

ويقول تعالى أيضا: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتَابِهَا﴾ (الجاثية/٢٨).

ودعوة الأمة إلى «كتابها» للمحاسبة تعنى أن المجتمعات تملك، كما يملك الأفراد، صحيفة أعمال تُدعى إليها، وتعني أيضا أن المجتمعات تعتبر من الموجودات الحية ذات شعور وتكليف وإرادة واختيار وقابلة للمخاطبة.

ويقول ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الانعام/ ١٠٨).

وهذه الآية الكريمة تدل على أن كل أمة تتكيّف ضمن إطار مشاعر واحدة ومعايير خاصة، وطريقة تفكير خاصة، وكل أمة تحكم على الأشياء بمعايير خاصة، (على الأقل في المسائل المتعلقة بالإدراكات العملية)، ولكل أمة ذوق خاص وسليقة خاصة في فهم الأشياء، وقد تحلو لأمة أمور تقبح عند أمة أخرى، والجو الاجتماعي للأمة، هو الذي يخلق سليقة الفهم والإدراك لأفراد تلك الأمة.

ويقول تعالى: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (غافر/ ٥).

هذه الآية تتحدّث عن عزيمة وإرادة اجتماعيتين سلبيتين، عن

عزيمة اجتماعية لمعارضة الحق، وعن العذاب العام الذي ينزل بالمجتمع نتيجة هذه العزيمة الاجتماعية.

والقرآن الكريم يتحدث في بعض آياته عن عمل فرد وينسبه إلى جميع مجتمع ذلك الفرد، كما ينسب عمل جيل معين إلى الأجيال التالية[1].

وهذا لا يتم إلا إذا كان أفراد الأمة الواحدة يملكون تفكيرًا اجتماعيًا وإرادة اجتماعية، أو بعبارة أخرى يملكون روحًا جماعية.

في قصة ثمود مثلاً، عقرُ ناقة صالح ارتكبه فرد واحد لكنّ القرآن ينسب العمل إلى القوم بأجمعهم: (فعقروها)، فكل القوم مشتركون في الجريمة، ولهذا السبب جميعهم مستحقون للعقاب: ﴿فدمدَمَ عليهم ربهم..﴾.

يقول الإمام علي(ع) موضحًا هذه المسألة:

«أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب، لما عمّوه بالرضا، فقال: فعقروها فأصبحوا نادمين» (خطبه نهج البلاغة)

فالناس يجتمعون على الرضا عن فعل أو السخط على فعل،

---

١ - ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة/٧٩). ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران/ ١١٣).

وإن كان ذلك الفعل صادرًا عن فرد واحد، ولذلك فإنهم جميعًا مشتركون في حكم واحد ومستحقون لمصير واحد.

وقوم ثمود إنما استحقوا العذاب جميعًا لأنهم رضوا عن فعلة ذلك المجرم، وبذلك فإنّ إرادتهم وعزيمتهم اتجهت اتجاهًا واحدًا، وكانت الجريمة في الحقيقة نتيجة عزم المجموع.

جدير بالذكر أنّ الرضا عن الذنب ليس ذنبًا مادام لم يتعد حدود الرضا، ولم يتحول إلى اشتراك عملي في الذنب.

فلو ارتكب فرد ذنبًا، وسمع به آخر قبل الارتكاب أو بعده، ورضي عنه، فليس هذا الرضا بذنب حتى ولو بلغ الرضا مرحلة العزم، تمامًا كما لو عزم الفرد على ارتكاب ذنب لكنه لم يقدم عليه عمليًا.

الرضا يكون ذنبًا حينما يصبح نوعًا من الاشتراك في عزم المذنب على ارتكاب ذنبه، ومؤثرًا بشكل من الأشكال في اتخاذ القرار وفي الارتكاب. والذنوب الاجتماعية هي من هذا القبيل.

حينما يعمّ الرضا عن ذنب في الجوّ الاجتماعي والروح الجماعية، ويصبح الاتجاه السائد في المجتمع متجهًا نحو ذلك الذنب، ثم يرتكب أحد أفراد المجتمع الذنب، فإن ذنب هذا الفرد هو ذنب المجموع، باعتبار أن رضا هذا الفرد جزء من رضا المجموع، وعزمه جزء من عزم المجموع.

في القرآن تُنسب أحيانا أعمال جيل معين إلى الأجيال التالية، كما تُنسب أعمال بني إسرائيل السابقة إلى قوم معاصرين

للنبي(ص) فيقول عن هؤلاء القوم إنهم استحقوا الذلة والمسكنة لقتلهم الأنبياء بغير حق. ذلك لأن القرآن يرى أن هؤلاء امتداد لأولئك ، بل إنهم نفس أولئك في منظار الروح الجماعية. وهذا المفهوم هوالمقصود من مقولة: «إن البشرية تتكون من الأموات أكثر من الاحياء"[1]. أي إنٍ الأموات والأجيال السالفة تشارك في تشكيل عناصر المجتمع أكثر من الأحياء. وفي هذا المعنى أيضا قيل: «إن الأموات يحكمون على الأحياء أكثر من ذي قبل»[2].

في تفسير الميزان بحث عن المجتمعات ذات الروح الواحدة والتفكير الاجتماعي الواحد، وصاحب التفسير يمثل هذا المجتمع بالإنسان الواحد، ويعتبر أفراد مثل هذا المجتمع أعضاء لذلك الإنسان الواحد ذائبين فيه ذاتًا وفعلاً، ومشتركين معه في السعادة والشقاء. ثم يقول: «وهكذا صنع القرآن في قضائه على الأمم والأقوام التي ألجأتهم التعصبات المذهبية أو القومية أن يتفكروا اجتماعيًا كاليهود والأعراب وعدّة من الأمم السالفة. فتراه يؤاخذ اللاحقين بذنوب السابقين، ويعاتب الحاضرين ويوبّخهم بأعمال الغائبين والماضين، كلّ ذلك لأنّه القضاء الحق فيمن يتفكر فكرًا اجتماعيًا..» [3].

---

١ - أوغست كونت، نقلاً عن كتاب «المراحل الأساسية» ص ١٧.

٢ - المصدر نفسه.

٣ - الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي، ج ٤، ص ١١٢.

مفهوم الإنسان للعالم
في فكر الشهيد مطهري

• الكون بجميع أبعاده لا يخضع للتجربة • العطاء التجزيئي للعلم لا يمكن أن يصور لنا العالم بشكله الكلي العام • العالم عاجز عن الإجابة عن أهم المسائل المرتبطة بالتصور • التصور الفلسفي مقدمة للعمل ومؤثر فيه أيضا باعتباره يشخص اتجاه العمل وطريقة انتخاب الخط الحياتي للإنسان • العلم عاجز عن منح الإنسان تصوراً يشكل قاعدة لايديولوجية معينة بينما تقدر الفلسفة على ذلك • التصور يستطيع أن يكون قاعدة للايديولوجية حين يتصف بالاستحكام وسِعَة التفكير الفلسفي وقدسية المبادئ الدينية

يقول الأستاذ الشهيد:

التصور أو مفهوم الإنسان للعالم يختلف باختلاف المصدر الذي ينطلق منه هذا التصور. فقد يكون المنطلق: العلم، أو الفلسفة، أو الدين، ومن هنا يكون للتصور ثلاثة أنواع: العلمي، والفلسفي، والديني.

التصور العلمي (المفهوم العلمي للعالم) [1]

لكي نفهم حدود معطيات العلم في حقل المعرفة، نذكر أولا أن العلم يقوم على أساس: الفرضية والتجربة. حين يتجه عالم إلى اكتشاف أو تفسير ظاهرة معينة، تنقدح في ذهنه أولا فرضية، ثم يُدخل هذه الفرضية في المختبر ويجري عليها التجارب العلمية، فان أيدتها التجارب، تتخذ الفرضية صفة المبدأ العلمي، ويبقى هذا المبدأ العلمي على اعتباره وقوته مالم تحل محله فرضية أشمل ومدعومة بتجارب أفضل.

العلم يسلك هذا الطريق في كشف العلل والمعلولات، فبالتجربة العملية يكتشف علّة الشيء وأثره ومعلوله، ثم يتّجه نحو علّة تلك العلة، ومعلول ذلك المعلول، وهكذا يواصل العلم مسيرته في الحدود الممكنة.

عمل العلم، باعتباره يقوم على التجربة العملية، ذو مزايا ونقائص.

أهم مزايا الاكتشافات العلمية هي أنها دقيقة وجزئية

---

١ - في الحقيقة لا يمكن للعلم أن يعطينا مفهومًا عامًا عن الكون والحياة، وذلك ما يؤكده الأستاذ المؤلف نفسه، ولذلك لا يمكن أن يكون هناك تصور علمي للعالم. وتقسيم التصور إلى علمي وفلسفي وديني فيه كثير من التسامح والتداخل والالتباس، إذا لا توجد في المسألة العلمية نظرة إلهية وأخرى مادية، وإنما توجد هاتان النظرتان وتتعارض المادية مع الإلهية حينما تعرض مسألة الوجود فيما وراء الطبيعة. من هنا قسم الإمام الشهيد الصدر المفهوم الفلسفي للعالم إلى: مثالي ومادي وإلهي. (راجع فلسفتنا: المفهوم الفلسفي للعالم) (م).

ومشخصة. العلم قادر على أن يزوّد الإنسان بآلاف المعلومات عن موجود جزئي، وقادر على أن يزوّدنا بكتاب من المعلومات عن ورقة نباتية. كما أن هذه الاكتشافات ـ بفضل ما تقدمه للبشر من قوانين ـ تيسّر للإنسان طريق التصرّف بهذه الظواهر والسيطرة عليها، ومن هنا تنشأ الصناعة والتكنولوجيا.

إلى جانب هذه المزايا، ثمة نقائص في عمل العلم هي:

١ـ محدودية نطاقه: فالعلم محدود بالتجربة، وقادر على أن يتابع أعماله على الظواهر مادامت تلك الظواهر تخضع للتجربة. لكن الكون بجميع أبعاده لا يخضع للتجربة. فالعلم يستطيع أن يتابع العلل والأسباب أو المعلولات والآثار إلى حد معين في الواقع العملي، ويصل بعدها إلى طريق مسدود. العلم مثل مصباح قادر على أن يشق جنح الظلام إلى مدى معين. العلم لا يستطيع أن يجرّب مسألة بداية العالم ونهايته ولا المسائل التي ترتبط بعبثية العالم أو هدفيته، وقوانين المسيرة التاريخية، وبوجود سبب أعلى من المادة في حركة الكون، وبعلاقة الإنسان بحركة الكون، وبحياة الإنسان بعد الموت، ولذلك يلجأ إلى الفلسفة حين يصل إلى مثل هذه المسائل.

العالم ـ في نظر العلم ـ مثل كتاب قديم سقطت أوراقه الأولى والأخيرة، فلا مبدأه معلوم ولا منتهاه. من هنا كان المفهوم العلمي للعالَم جزئيًا لا كليًا. فالعلم يعرّفنا على وضع بعض أجزاء لا على

الشكل العام والشخصية الكلية للعالم. المفهوم العلمي للعالم مثل مفهوم أناس عن فيل لمسوه في ظلمة، فذلك الذي لمس إذن الفيل قال: إن الفيل يشبه مروحة يدوية، وذلك الذي لمس رجل الفيل قال إنه يشبه أسطوانة، أما ذلك الذي لمس ظهره قال: إن الفيل يشبه السرير [1].

العطاء التجزيئي للعلم لا يمكن أن يصور لنا العالم بشكله الكلي العام. والعالم مثل إنسان يسكن في منطقة من مناطق مدينة طهران ويعلم تفاصيل هذه المنطقة ودقائقها، ومثل هذا الإنسان لا يستطيع أن يفهم طهران بجميع أبعادها. ولو ضممنا المعلومات التجزيئية لكل منطقة من مناطق طهران إلى بعضها لما حصلنا أيضا على التصوير الكلي لطهران، ولما استطعنا أن نفهم شكلها ولا ارتباط أجزائها مع بعضها ولا جمالها أو قبحها. ولا سبيل لنا لتكوين مفهوم عام عن طهران إلا إذا أتيحت لنا وسيلة

---

١ - هذا التشبيه مستلهم من أبيات الشاعر الإيراني «جلال الدين المولوي» حيث يقول: جاء الهنود بفيل إلى أرض لم تعهد رؤية الفيل من قبل..

ووضعوه في دار مظلمة لا نور فيها

ودخل الناس واحدًا بعد آخر ليلمسوه

وما إن خرجوا حتى بدأ كل منهم يصفه من خلال ما أحسّه بلامسته

فهذا الذي وقعت يده على الخرطوم قال: إنه يشبه الانبوب

وذاك الذي لمس الأذن قال: إنه يشبه مروحة يدوية

أما الذي استطاع لمس ظهره فوصفه بأنه يشبه السرير

وما كان من الذي لمس قوائمه إلا أن قال: إنه يشيبه الاسطوانة (م).

إلقاء النظرة الكلية العامة على هذه المدينة، كأن نتفحصها من الطائرة مثلاً.

من هنا فالعالم عاجز عن الإجابة على أهم المسائل المرتبطة بالتصور، وهي إعطاء صورة عامة كلية عن مجموع العالم.

٢ - النقص الآخر التصور العلمي باعتباره أساسًا لايديولوجية معينة، هو أن العلم متزلزل يفتقد الثبات في الجانب النظري، أي في جانب تصوير الواقع كما هو. صورة العالَم تتغيّر باستمرار في المنظار العلمي؛ لأن العلم قائم على أساس الفرضية والتجربة، لا على أساس المبادئ البديهية الأولية العقلية، فالفرضية والتجربة لهما قيمة وقتية. من هنا فالتصور العلمي متزلزل لا ثبات فيه، ولذلك لا يمكنه أن يكون قاعدة للإيمان. الإيمان يتطلب قاعدة قوية ثابتة لا يعتريها التزلزل والتغيير، قاعدة ذات صبغة خالدة.

٣ - إضافة إلى ما سبق، قيمة التصور العلمي تتمثل في الجانب العملي والفني، لا في الجانب النظري، بينما الايديولوجية بحاجة إلى قاعدة ذات قيمة نظرية لا علمية. نعني بالقيمة النظرية للعلم قدرته على إعطاء صورة لواقع العالم. ونعني بقيمته العملية والفنية قدرته على تصعيد مقدرة الإنسان على الصعيد العملي. تطور التكنولوجيا اليوم مظهر للقيمة العملية والفنية للعلم.

ومن غرائب العلم في عالمنا المعاصر، أن قيمته العملية والفنية ازدادت ازديادًا عكسيًا مع قيمته النظرية.

قد يظن بعض أن العلم حقق، في مجال خلق الإيمان والاطمئنان بحقيقة العالم، تطورًا مثل التطور الذي حققه في المحالات العملية، بينما المسألة على العكس من ذلك تمامًا [1].

مما سبق يتضح أن الإيديولوجية بحاجة إلى تصور يتصف بالخصائص التالية:

١ـ قدرته على الإجابة عن المسائل الأساسية للعالم ذات الارتباط بكل العالم لا بجزء خاص منه.

٢ - أن يقدم معرفة ثابتة موثوقة وخالدة لا معرفة مؤقتة عبارة.

٣ - ما يقدمه يجب أن يكون ذا قيمة نظرية كاشفة للواقع، لا أن تكون قيمته عملية فنية محضة.

وفهمنا أن التصور العلمي يفتقد هذه المقومات الثلاثة.

التصور الفلسفي (المفهوم الفلسفي للعالم)

هذا التصور لا يبلغ في دقته وتشخّصه درجة التصور العلمي، لكنه - بدلا من ذلك - يستند إلى سلسلة من «المبادئ» وهذه المبادئ: بديهية - أولا - ولا يمكن للذهن أن ينكرها، وتفرض نفسها عن طريق البرهان والاستدلال. وهي - ثانيًا - عامة وشاملة، وتسمى في المصطلح الفلسفي: أحكام الموجود بما هو موجود، وتتصف بنوع من الجزم.

---

١ - راجع: المفهوم العلمي للعالم، بر تراندرسل، فصل: محدودية الطريقة العلمية. وفيه دلالات واضحة على رفض القيمة النظرية للعلم.

وليس في التصور الفلسفي ما في التصور العلمي من تزلزل وعدم ثبات، ومن محدودية في الإطار.

التصور الفلسفي يجيب على ذات الأسئلة التي تستد إليها الايديولوجيات. والتفكير الفلسفي يشخّص الصورة العامة للعالم بجميع أبعادها.

التصور العلمي والتصور الفلسفي كلاهما مقدمتان للعمل، ولكن بشكلين مختلفين.

التصور العلمي مقدمة للعمل باعتباره يمنح الإنسان القدرة والقوة على «التغيير» و«التصرف» في الطبيعة، ويجعله مسيطرًا على الطبيعة، ليستخدمها في اتجاه تحقيق ميوله ورغباته.

والتصور الفلسفي مقدمة للعمل ومؤثر فيه أيضا باعتباره يشخص اتجاه العمل وطريقة انتخاب الخط الحياتي للإنسان. هذا التصور مؤثر في موقف الإنسان وانفعالاته تجاه العالم، فهو يعيّن هذا الموقف ويبلور نظرة الإنسان إلى الكون والحياة، ويمنح الحياة معنى، ويخلصها من العبثية والفراغ.

وهذا ما نعنيه من قولنا: إن العلم عاجز عن منح الإنسان تصورًا يشكل قاعدة لايديولوجية معينة بينما تقدر الفلسفة على ذلك.

التصور الديني (المفهوم الديني للعالم)

لو اعتبرنا كل نظرة عامة عن الكون والعالم تصورًا فلسفيًا، بغض النظر عن منطلق ذلك التصور، سواء كان قياسًا وبرهانًا أم

تلقيًا عن الوحي والغيب، فينبغي أن نعتبر التصور الديني نوعًا من التصور الفلسفي. بين التصور الديني والتصور الفلسفي حدود مشتركة، خلافًا للتصور العلمي.

ولو أخذنا منطلق التصور بنظر الاعتبار، فهناك فرق طبعًا بين المفهوم الديني للعالم والمفهوم الفلسفي للعالم.

في بعض الأديان مثل الإسلام، المفهوم الديني للعالم يتخذ طابعًا فلسفيًا، أي طابعًا استدلاليًا والمسائل المطروحة فيه مستدلة ومبرهنة على أساس عقلي. من هنا فالتصور الإسلامي هو أيضًا تصور عقلي وفلسفي.

التصور الديني يمتاز كما قلنا بما يمتاز به التصور الفلسفي من : ثبات وخلود، وعموم وشمول. وهناك ميزة أخرى يختص بها التصور الديني هي قداسة مبادئه.

الايديولوجية تتطلب الإيمان، والإيمان لا يمكن أن يتأتّى للايديولوجية إلا إذا اكتسبت طابع الحرمة إلى حدّ التقديس، إضافة إلى طابع الخلود والثبات في أصول تلك الإيديولوجية. يتضح من هذا أن التصور يستطيع أن يكون قاعدة للايديولوجية، وباعثًا على الإيمان، حين يتخذ طابعًا دينيًا.

مما تقدم نفهم أن التصور يستطيع أن يكون قاعدة للايديولوجية حين يتصف بالاستحكام وسِعَة التفكير الفلسفي وقدسية المبادئ الدينية.

مقابلة مع الاستاذ

الشهيد مطهري حول

نظام الجمهورية الاسلامية

• كلمة «الجمهورية» تعيّن شكل الحكومة المقترحة وكلمة «الإسلامية»: تحدّد محتوى هذه الحكومة • هل الإيمان بمبادئ قائمة على أساس العلم والمنطق والفلسفة، والتسليم لهذه المبادئ يعارض الديمقراطية؟!! • المهم أن يكون الشعب هو المنفّذ للقانون الذي آمن به وقَبَله • الصفة الإسلامية للجمهورية، لا تتعارض مع سيادة الشعب أو مع الديمقراطية بشكل عام • الهوية الوطنية لأيّ شعب من الشعوب تتمثل في التراث الحضاري المتأصل في أعماق هذا الشعب • لا أحد يريد فرض الطابع الإسلامي على النظام الجمهوري المقترح في إيران. فتلك إرادة الشعب نفسه • «ولاية الفقيه»، ولاية إيديولوجية، والفقيه منتخب من قِبَل الجماهير، وهذا عين الديمقراطية • الصفة الإسلامية لاتتناقض مع الجمهورية، ولا تؤدّي إلى تسلط طبقة معينة في المجتمع الإسلامي

❖ فضيلة الأستاذ! نحن على أبواب اجراء الاستفتاء العام لتعيين النظام الحاكم في إيران، وخلال هذه الأيام يطرح بعض - وخاصة

المثقفين ـ أسئلة فكرية تتعلق بمسالة النظام..

نغتنم فرصة لقائنا بكم في هذه الندوة التلفزيونية لنوجّه إليكم أهمّ تلك الأسئلة:

أبدأ من مفهوم «الجمهورية الإسلامية» وهو مفهوم يبدو غامضًا إلى حد كبير... فالجمهورية تعني إعطاء الشعب حق الحاكمية.. بينما الصفة الإسلامية تقيّد هذه الحاكمية وتحدّدها. ويبدو أيضا أن مفهوم الجمهورية الإسلامية يتعارض مع مفاهيم الديمقراطية ومفاهيم الجمهورية بمعناها المطلق العام، فهل لكم أن تعطونا صورة واضحة لنظام الجمهورية الإسلامية؟

ج: أعتقد أنّ مفهوم «الجمهورية الإسلامية» واضح لا يحتاج إلى كثير من الشرح والتفصيل. فالمفهوم مركّب من كلمتين: كلمة «الجمهورية» وكلمة «الإسلامية».

كلمة «الجمهورية» تعيّن شكل الحكومة المقترحة.

وكلمة «الإسلامية»: تحدّد محتوى هذه الحكومة.

تعلم أنّ النظّم التي حكمت في العالم وتحكم الآن متنوعة، منها النظام الفردي الوراثي، كنظام السلطنة والنظام الملكي.. ومنها النظام الارستقراطي كالنظم الّتي يحكم فيها الفلاسفة والحكماء أو المتخصّصون أو الأشراف. ومنها حكومة المتنفذين وأصحاب رؤوس الأموال ودافعي الضرائب.. وغيرها من النظم والحكومات.

حكومة عامة الناس، واحدة أخرى من الحكومات المطروحة

على ساحة أنظمة الحكم.. وهي تعنى الحكومة التي يتمتع فيها جميع الناس بحق الانتخاب دون تمايز بينهم في الجنس أو اللون أو العقيدة، والشرط الوحيد في المنتخب هو البلوغ والنضج العقلي لا غير..

إضافة إلى ذلك، الهيئة الحاكمة المنتخبة تحكم لفترة معينة، وللشعب حق إبقائها أو تغييرها بعد انقضاء تلك الفترة.. وهذا الشكل من أنظمة الحكم هو «الجمهوري»، وهو الشكل المقترح لنظام الحكم في إيران.

أما كلمة «الإسلامية» فتعنى كما قلنا تحديد محتوى هذه الحكومة، محتوى هذا الشكل من الحكم أي إنّ الناخب حينما يقول نعم للجمهورية الإسلامية، يقترح أن يكون نهج الحكومة قائمًا على أصول وتعاليم إسلامية.

الإسلام كما هو واضح، مدرسة فكرية وإيديولوجية وأطروحة لتنظيم الحياة البشرية بجميع أبعادها وشؤونها.

من هذا نفهم أن «الجمهورية الإسلامية» تقوم على أساس نظام يتمتع فيه أفراد الشعب بحق الانتخاب وبحق تغيير الهيئة الحاكمة، وهذا هو شكل النظام.. أمّا المحتوى فإسلامي.

والذين يجدون غموضًا وتناقضًا في كلمة «الجمهورية الإسلامية» قد اختلط عليهم الأمر، وخالوا أن ثمة تناقضًا بين حق السيادة وحق الالتزام بمدرسة فكرية عملية في الحياة. هؤلاء ظنّوا أن الإنسان الملتزم بخط فكري معين، والمناضل من أجل تطبيق مبادئ هذا الخط في الحياة الاجتماعية، ليس بحرّ ولا

ديمقراطي، ومن خلال هذه المعادلة الوهمية الخاطئة يستنتجون أن الديمقراطية سيتهددها الخطر إن أضحى النظام إسلاميًا وأضحت الجماهير تؤمن بالمبادئ الإسلامية وتطالب بتطبيقها!!

مسألة الجمهورية ـ كما ذكرت ـ ترتبط بشكل النظام المؤطّر بنوع من الديمقراطية، أي القائم ضمن إطار إعطاء الأفراد حق تقرير المصير، ومفهوم الجمهورية هذا لا يعفي الجماهير من التمسك بخط فكريّ معين والالتزام بمبادئ مدرسة معينة.

تُرى، هل تعنى الديمقراطية أن يلتزم كل فرد بخط فكري خاص، أو أن يتخلّى جميع الأفراد من أي التزام بمدرسة فكرية؟؟!

ترى، هل الإيمان بمادئ قائمة على أساس العلم والمنطق والفلسفة، والتسليم لهذه المبادئ يعارض الديمقراطية؟!!

الأكثرية الساحقة للشعب الإيراني، تؤمن إيمانًا راسخًا بمبادئ الإسلام، وليس في هذا الإيمان المطلق ذنب ولا عيب.

لكنّ العيب أن تسلب هذه الأكثرية القاطعة، من الأقلية غير المؤمنة، حقَّ النقد والمناقشة والاعتراض.

وهل هذه الأقلية الضئيلة المعارضة تتمتع اليوم عندنا بالحد الكافي من الحرية؟ هذا ما يترك الجواب عليه لأولئك الذين يصرّون على أنّ الديمقراطية ترادف عدم الالتزام بمدرسة فكرية![1].

---

١ - يقصد أن هؤلاء المعارضين يتمتعون بكامل الحرية في إعلان معارضتهم(م).

❖ ذكرت أنّ النظام الجمهوري يعني منح جميع الجماهير حق الحاكمية والسيادة. والسيادة الشعبية من معطيات الثورة الدستورية الإيرانية[1]. في مطلع هذا القرن، وطرح مسألة «الجمهورية الإسلامية» بدلاً من «الجمهورية» بشكل مطلق، يؤدّي إلى حكومة طبقة الروحانيين (علماء الدين)، ألا تعتقد أن هذا يؤدّي إلى سلب الجماهير حقها في الحكم والسيادة؟ ألا تعتقد أن من الأفضل، التمسك بالقاعدة القائلة: إن السلطات الحاكمة تنطلق من الشعب، بدلاً من الخوض في بحوث عامضة ترتبط بالحكومة الإسلامية كبحث ولاية الفقيه؟!

ج: أفهم من سؤالك أنك تريد أن تقول: إنّ الشعب الإيراني في ثورته الدستورية، قد نال حق سيادته الشعبية، أي حق انطلاق السلطات التقنينية والتنفيذية والقضائية من الشعب وليس من المعقول أن تفوّض الجماهير هذا الحق لشخص أو أشخاص محدّدين. كما تريد أن تقول أيضا: إن مفهوم الجمهورية الإسلامية، يعني حق حاكمية الفقيه ـ أو استبداد الفقهاء كما يقول بعضهم ـ وهو مفهوم رجعي معارض لسيادة الشعب.

من أجل أن أجيب على ما تقول، لابد أن أذكر أنّ الشعب الإيراني نال في ثورته الدستورية حق سيادته، لكن هذا الشعب لم يكن يرى أي تعارض بين نيله هذا الحق، والتزامه بالإسلام

---

١ - هي الحركة التي انبثقت في بداية القرن العشرين (١٩٠٦) لمعارضة حكم الشاه القاجاري الاستبدادي، والمطالبة بحكم دستوري.

فكـرًا وعقيـدة وقانونًـا يـنظم جميـع شـؤون الحيـاة. ولهـذا نـص الدسـتور الإيرانـي المدوّن عقـب انتصـار تلـك الثورة، علـى ضـرورة السير في إطار القوانين الإسلامية، وصرّح بأنّ أي قانون إنّما يفقد اعتبـاره القـانوني إذا كـان معارضًـا لقـوانين الإسـلام. كمـا نـصَّ الدستور الذي تمخضت عنه الثورة الدستورية الإيرانية على ضرورة وجود خمسة فقهاء في مجلس النـواب للإشـراف علـى القـوانين. ولم يكن يخطر على بال روّاد الثورة الدستورية، أن التمسك بالإسـلام والالتـزام بالحـدود والقـوانين الإسـلامية يعـارض الـروح الدسـتورية والروح الديمقراطية. كما أنهم لم يروا معارضة بين الإسـلام وبـين قـدرة مجلـس النـواب علـى التقـنين، لأن القـوانين كانـت تسـنّ في إطار المبادئ الإسلامية.

المهم أن يكـون الشـعب هـو المنفّـذ للقـانون الـذي آمـن بـه وقَبَلـه. سواء كـان الشـعب هـو الـذي سـنّ القـانون، أو أن يكـون قـد سـنّه صـاحب مدرسـة فكريـة أو منظـر قـانوني، أو أن يكـون القـانون الذي آمنت به الجماهير قد تلقته عن طريق الوحي الإلهي.

يتضح من هذا أن الصفة الإسلامية للجمهورية، لا تتعـارض مـع سـيادة الشـعب أو مـع الديمقراطيـة بشـكل عـام، والمبـادئ الديمقراطيـة لا تتطلـب بالضـرورة ابتعـاد المجتمـع عـن كـل خـطّ فكري ملتزم.

إننا نرى الأحزاب تتبنّى أيديولوجيات معينة ولا تعتبر هذا التبنّي معارضًـا لمبـادئ الديمقراطيـة، لكـن المسـألة حينمـا تطـرح علـى

الصعيد الإسلامي ، يثير بعضهم شكوكًا وتساؤلات حول إمكان انسجام المفهوم الإسلامي مع المفهوم الجمهوري!!.

أعتقد أنّ هذه الشكوك والشبهات تُطرح من لدن أفراد لايزالون يؤمنون بديمقراطية القرن الثامن عشر التي تحدّد حقوق الإنسان بإطار مسائل المعيشة والمأكل والمسكن والملبس وحرية انتخاب طريقة المعيشة المادية. هذه الديمقراطية التي تحذف من دائرة الحقوق الإنسانية، مسائلَ الانتماء الفكري والالتزامِ المدرسي والتكاملِ الإنساني والتحررِ من سلطة البيئة والغرائز...

أشرت في أسئلتك إلى سلب الجماهير حقها في الحاكمية والسيادة، وهنا لابد أن أشير إلى حقيقة واضحة كل الوضوح هي: أنَّ الأكثرية الساحقة للشعب الإيراني حدّدت في شعاراتها ومطاليبها نوع النظام الذي تريده. لم يتجه كفاح الشعب الإيراني إلى إزالة التسلط السياسي والاستعمار الاقتصادي حسب، بل اتّجه أيضًا إلى مقارعة الثقافات والأيديولوجيات الغربية، إلى مقارعة التبعية للغرب تحت العناوين المغرية نظير الحرية والديمقراطية والاشتراكية والمدنية والتطور والتقدم وغيرها من العناوين الزائفة التي يلوّح بها الاستعمار وعملاؤه في عالمنا.

إن الملايين من أبناء الشعب الإيراني، حين يطالبون في مظاهراتهم الضخمة الصاخبة بإقامة الجمهورية الإسلامية، قد حدّدوا في الواقع، الإطار الفكري لنظام الحكم الذي يريدونه.

الهوية الوطنية لأيّ شعب من الشعوب تتمثل في التراث الحضاري

المتأصل في أعماق هذا الشعب.

وهذه الهوية الوطنية تتمثل لدى جماهير الشعب الإيراني بالإسلام.

الإيرانيون المنفصلون عن الإسلام، هم في الواقع منفصلون عن الروح الحضارية للشعب الإيراني، وعن إرادة هذا الشعب، على الرغم من أنهم يعيشون في كنف هذه الأمة وتحت حمايتها.

لو كانت إرادة الشعب في إقامة الجمهورية الإسلامية، تتعارض مع السيادة الشعبية، لكانت الديمقراطية أمرًا محالاً، إذ إنّ وجودها يستلزم عدمها.

لا أحد يريد فرض الطابع الإسلامي على النظام الجمهوري المقترح في إيران. فتلك إرادة الشعب نفسه. والثورة في إيران بدأت تتصاعد بسرعة فائقة منذ أن طُرح شعار الجمهورية الإسلامية.

مفهوم الجمهورية الإسلامية ينطوي على نفي وإثبات، نفي لنظام حاكم فرض سيطرته خمسة وعشرين قرنًا، وإثبات محتوى إسلامي وتوحيدي للنظام المقترح.

طرحتَ ي أسئلتك أيضًا، مسألة «ولاية الفقيه»، وهذه المسألة تتضح في ضوء ما ذكرناه. «ولاية الفقيه» لا تعنى أن يكون الفقيه على رأس الجهاز الحاكم، وأن يمارس الحكم بنفسه عمليًا.

دور الفقيه في البلد الإسلامي ـ أي في البلد الذي آمن مواطنوه بالإسلام باعتباره مدرسة فكرية متكاملة ـ هو دور المنظّر (ايديولوك)، لا دور الممارس للأمور التنفيذية. وواجب المنظّر أن

يشرف على التنفيذ الصحيح للنظرية، أن يبدي رأيه في صلاحية الأفراد المنفذين للدستور، وفي صلاحية رئيس الجمهورية، وفي جميع الأعمال التي تتعلق بتطبيق النظرية الإسلامية.

لم يكن ثوّار الحركة الدستورية وأنصارها في إيران تلك الأيام، ولا الشعب الثائر المسلم اليوم، يرون في الفقيه حاكمًا ينبغي أن يتقلد زمام الأمور، ويمارس الإدارة والحكم. بل كانوا يرون فيه الشخص الذي ينبغي أن يبدي وجهة نظره في صلاحية الحاكم المنفّذ للقوانين الإسلامية، باعتبار أن أبناء المجتمع الإسلامي يرتبطون بالمدرسة الإسلامية.

من هنا جاء في الحكم الصادر من الإمام إلى رئيس وزراء الدولة الموقتة: إنني أعين رئيس الحكومة، استنادًا إلى الحق الشرعي (ولاية الفقيه)، واعتمادًا على الثقة التي أولتني بها الأغلبية الساحقة للشعب الإيراني.

«ولاية الفقيه»، ولاية إيديولوجية، والفقيه منتخب من قِبَل الجماهير، وهذا عين الديمقراطية.

لو كان الفقيه منصوب من قِبل فقيه سابق، لو كانت السنّة أن يعين كلُّ فقيه خلفه لأمكن القول، أن هذه السنة مخالفة للديمقراطية. لكن المواطنين أنفسهم هم الذين ينتخبون هذا المشرف على تطبيق القوانين.

الحق الشرعي للإمام ينطلق من انتماء أغلبية الشعب الساحقة للإسلام باعتباره مدرسة فكرية شاملة، وهذه الأغلبية، تعطي

رأيها فيمن يشرف على التطبيق والمطبقين.

أشرت في أسئلتك إلى حكومة طبقة رجال الدين، وفي عبارتك خلط بين الحكومة الإسلامية، وحكومة رجال الدين. كيف استنتجت من مفهوم الجمهورية الإسلامية، مفهوم حكومة رجال الدين؟ هل الإسلام دين طبقة رجال الدين؟ هل الإسلام إيديولوجية رجال الدين؟ هل إن مثقفينا حقاً يفهمون الجمهورية الإسلامية أنّها حكومة علماء الدين، وأنها حكومة يتولّى فيها علماء الدين كلّ مناصب الدولة؟!

إذا كان فهمهم كذلك، فهو غريب للغاية، وإن كانوا يفهمون الحقيقة لكنّهم يصرّون على تزويرها وتحريفها، فهو مؤسف للغاية.

إن تلميذ الابتدائية في إيران يفهم اليوم أنّ الجمهورية الإسلامية تعنى المجتمع الإسلامي، والمجتمع التوحيدي القائم على أساس تصور إسلامي للكون والحياة.

كلّ من له أدنى اطلاع على المفاهيم الإسلامية، يعلم أنّ التصور الإسلامي ينطوي على إيديولوجية توحيدية يعبر عنها بالتوحيد العملي. وتعنى بلوغ الإنسان درجة التوحيد الأخلاقي والتوحيد الاجتماعي.

دأب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أن يتوّج رسائله إلى الشخصيات العالمية بالآية الكريمة:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ

نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ (آل عمران/ ٦٣).

وجملة: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تعنى التوحيد النظري، وجملة: ﴿أَنْ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ﴾ تعنى التوحيد العملي الفردي.

وعبارة: ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ تؤكد التوحيد العملي الاجتماعي، المقارن للحرية والديمقراطية بأعمق أشكالهما.

أين هذا المفهوم العميق للمجتمع الإسلامي، من مفهوم حكومة رجال الدين؟! إنه بعيد عنه كل البعد.

يعتقد بعضهم أنّ إطلاق لفظ الجمهورية الإسلامية يضفي الصفة الطبقيّة على المجتمع. بينما الاكتفاء بلفظ الجمهورية ينفي هذه الصفة. وهذا الاعتقاد الخاطئ، كما قلنا ناشئ عن فهم خاطئ لوظيفة الروحانيين (علماء الدين) في المجتمع الإسلامي.

ولابد أن أوكّد في اختتام إجابتي على سؤالك، أن لفظ الجمهورية وحده لا يمكن أن يكون منطلق تحوّل واقعي في المجتمع، كما أنّ إضافة صفة إلى كلمة الجمهورية لا يؤدي بالضرورة إلى تناقض بين الصفة والموصوف، بل ينبغي البحث أوّلا في محتوى هذه الصفة، والصفة الإسلامية لاتتناقض مع الجمهورية، ولا تؤدّي إلى تسلط طبقة معينة في المجتمع الإسلامي.

الشهيد مطهري
وإحياء الفكر الإسلامي

• الشهيد مطهري من أولئك الدعاة الذين نذروا أنفسهم لإصلاح المجتمع الإيراني، مبتدئًا بإصلاح المفاهيم ومحاربة الإنحرافات الفكرية • إحياء الفكر الديني ليس هو إحياء الدين نفسه، بل إحياء التفكير بشأن الدين • الهزيمة التي مُني بها العالم الإسلامي أمام الاستعمار الغربي كانت هزيمة نفسية بالدرجة الأولى • الشهيد مطهري واجه في عملية الإحياء مشكلتين: الأولى، مشكلة الفئة المتحركة من الشباب والمثقفين الذين يتشبعون بأفكار الغرب ليبراليها واشتراكيها والثانية، مشكلة الفئة الجامدة الهامدة من المسلمين الإيرانيين • الأستاذ مطهري وجد أن مهمته الأولى هي تقديم الإسلام بلسان العصر، أو بعبارة أخرى الجمع بين «الأصالة» و«المعاصرة» • حوزاتنا العلمية التي تموج اليوم بالنشاطات الاجتماعية يجب أن تعي مسؤوليتها العظيمة العلمية والفكرية • الشهيد مطهري كان أيضًا من المؤمنين بأن التغيير الاجتماعي في المنظور الإسلامي لا يمكن أن يتحقق دون ثورة كاملة تطيح بالظالمين .

العودة إلى الحياة الإسلامية تبدأ من العودة إلى المفاهيم الإسلامية الصحيحة، وتطهير الأفكار والنفوس مما علق بها من انحراف. هذا هو الأساس الذي تبنّاه كلّ المصلحين في عالمنا الإسلامي لعملهم الاصلاحي على اختلاف اجتهاداتهم في تشخيص نوع الانحراف وترتيب الأولايات.

الشهيد مطهري من أولئك الدعاة الذين نذروا أنفسهم لإصلاح المجتمع الإيراني، مبتدئًا بإصلاح المفاهيم ومحاربة الإنحرافات الفكرية، ويطلق على هذه العملية اسم «إحياء الفكر الديني» كما سمّاها أيضًا إقبال اللاهوري من قبل.

ويوضّح مقصوده من إحياء الفكر الديني بقوله: «المقصود من إحياء الفكر الديني ليس هو إحياء الدين نفسه، بل إحياء التفكير بشأن الدين، وبعبارة أخرى غسل الأدمغة مما تراكم فيها من انحرافات وتشويهات بشأن الدين»[1].

نستطيع أن نفهم عِظم المسؤولية التي نهض بها الشهيد مطهري في عملية الإصلاح الفكري لو عرفنا ضخامة الجهود التي بُذلت في إيران خلال القرون الأخيرة لتشويه صورة الإسلام ولمسخ المفاهيم الإسلامية عن طريق مزجها بالمفاهيم المادية الغربية.

الهزيمة التي مُني بها العالم الإسلامي أمام الاستعمار الغربي كانت هزيمة نفسية بالدرجة الأولى، وهذه الهزيمة الداخلية دفعت

---

١ -إحياء الفكر في الإسلام، مطهري، ترجمة آذرشب، ط ١، طهران ١٤٠٢هـ، ص ١٣.

بكثير من المثقفين المهزومين إلى الطعن في تراث الأمة وتاريخها وأصالتها، وإلى التبعية الفكرية والنفسية لعالم المستعمرين.

لقد نهض نفر من العلماء لدراسة هذه الظاهرة في العالم العربي وفي شبه القارة الهندية[1]. ولكن قلّما احتوت المكتبة العربية دراسات عن هذه الظاهرة في إيران.

في اعتقادنا أن الجهودَ التي انصبّت لمسخ المفاهيم الإسلامية وتشويهها وإشاعة روح «التغرّب» و«الالتقاط» في إيران كانت أعمق وأوسع مما كانت عليه في أجزاء العالم الإسلامي الأخرى، ذلك لما يتمتع به هذا البلد من علماء ومن حركة علميّة تتجه نحو الاجتهاد في مسائل الدين، ولابد أن تكون الخطة لمواجهة هذه الحركة العلمية المعمّقة في إيران عميقة ومدروسة.

أول من نهض بعملية الغزو الفكري وعملية مسخ الشخصية الإسلامية في إيران دولة بريطانيا، فمنذ سنة ١٦٠٠ ميلادية وضعت لإيران خطة تمثلت – كما ورد في الوثائق البريطانية – بما يلي:

١_ تقوم وزارة الخارجية البريطانية بتأسيس سفارة ومؤسسات بريطانية أخرى في إيران.

٢ - الشركات البريطانية مكلفة بتأسيس فروع تجارية

---

١ - انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، دار الفكر، بيروت؛ وكتاب: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الندوي، القاهرة ١٩٧٧م.

وبنوك في إيران وبالسعي للحصول على امتيازات استثمار المعادن والمناجم.

٣ - المستشرقون البريطانيون مكلفون بالتوجه إلى إيران ودراسة آدابها وتاريخها وفنونها.

٤ - علماء الآثار يتحملون مسؤولية دراسة آثار إيران وإجراء التنقيبات والحفريات فيها. وصاحب ذلك طبعًا نهب كثير من آثار إيران القيّمة.

٥ - المركز الماسوني الأعلى مكلّف بإرسال أفراد إلى إيران لتشكيل اللوج الماسوني في هذا البلد، وتشجيع الإيرانيين القادمين إلى بريطانيا على الانتماء إلى الماسونية.

٦ - على البريطانيين الموجودين في إيران أن يستغلوا نقاط الضعف الموجودة في إيران من رشوة وفساد وسرقة لتحقيق أهدافهم وأن يسعوا لتعميق هذه المظاهر السلبية ونشرها.

٧ - البريطانيون الموجودون في إيران يسعون لتقسيم إيران وإضعاف الحكومة المركزية ومحاولة الحطّ من قيمة الحضارة والثقافة الإيرانية[١].

لعلّ عملية نشر الماسونية والاستشراق في إيران كانت أكثر من الغزو العسكري والاقتصادي تأثيرًا في التمهيد لاستعمار إيران والسيطرة على مقدراتها. آثارها ملموسة في الهزيمة النكراء التي

---

١ - فراموشخانه وفراموسنرى در إيران (بالفارسية) إسماعيل رائين، طهران، منشورات أمير كبير.

مُني بها المثقف الإيراني... هذا المثقف الذي تعلّم في أوروبا وفي جامعات إيران ليتولّى أمور بلده في مجلس الشورى والوزارات والدوائر، وليسوق بلده نحو أهداف المستعمرين، وليقدّم كل مقدسات بلده على مذبح الطامعين والغاصبين.

من أجل أن نعطي صورة أكثر وضوحًا عن الهزيمة النفسية والفكرية التي سادت المثقفين الإيرانيين نذكر بعض روّاد الماسونية والتغرّب في إيران، ونبدأ بالميرزا يعقوب خان الأرمني.

عاش الميرزا يعقوب في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ويعتبر أول رائد للتغريب في إيران، والد ملكم خان الذي سيأتي ذكره، ومن مؤسسي الماسونية في إيران، وأحد أعضاء عصابة ميرزا آقاخان نوري قاتل المصلح السياسي الإيراني المعروف «أمير كبير» ومن عملاء بريطانيا العاملين علىتجزئة أرض خراسان.

فريدون آدميّت (وهو كاتب إيراني ماسوني ألف كثيرًا في تاريخ المثقفين التقدميين! في إيران) يفخر بأنه عثر على رسالة للميرزا يعقوب خان يذكر فيها أن الحل الوحيد لانتعاش اقتصاد إيران هو فسح المجال للأوروبيين أن يوظفوا رؤوس أموالهم في إيران، وتنشيط سياحة الغربيين فيها[1].

الميرزا يعقوب هذا يوجه رسالة إلى ناصر الدين شاه في حدود سنة ١٢٩٠هـ، ويدعوه إلى إعادة النظر في الأحكام الدينية، ويركز على الجهاد بالذات ويقول: إن المفهوم القديم للجهاد لم

---

١ - أنديشة ترقى وحكومت عصر سبهسالار (بالفارسية)، فريدون آدميّت، ط ٢، ص ٤٥ – ٤٨.

يعد له أي اعتبار الآن، ويجب تحويل مفهومه إلى شكل معاصر يرتبط بتحصيل الخير العام، مثل الجهاد من أجل دفع الفيضانات ومن أجل إنماء البلاد[1] .

يأتي بعد الميرزا يعقوب خان في قيادة حركة التغريب في إيران ابنه ملكم خان، ناظم الدولة (١٢٤٩ – ١٣٢٦هـ .ق) ، ويحمل لقب برنس من بلاط الشاه، تولى سفارة إيران في لندن ثم في روما[2] . ويعتبر دماغ الماسونية المفكر في إيران ورائد التغريب فيها.

كان بيته منتدى يجتمع فيه كل المشكوكين ومتزلزلي العقيدة من الإيرانيين مثل الشيخ محمد باقر بواناتي (معلم أدوارد براون في اللغة الفارسية) والحاجي بير زاده، وسائر المثقفين الذين تولوا فيما بعد الحركة الدستورية في إيران[3] .!! وهذا يبين لنا سبب انحراف الحركة الدستورية في إيران وسبب معارضة علماء الدين الواعين لها من أمثال الشيخ فضل الله نوري.

ويتحدث ملكم خان بنفسه عن سبب تأسيس المركز الماسوني في إيران ويقول: لقد خططتُ من أجل أن أمزج بين العقلية السياسية الغربية والعقلية الدينية الشرقية، لأنني ألفيت أن تغيير

---

١ - نفس المصدر، ص ١٠٣ و ١٠٤.

٢ - مقدمه فكرى نهضت مشروطيت (بالفارسية) د. علي أكبر ولايتي، ص ٨٠، ط ٣، طهران ١٩٨٦.

٣ - تحقيق در أفكار ميرزا ملكم خان (بالفارسية) نورايي، ص ١٠٢، طهران ١٣٥٢هـ . ش.

إيران على النمط الأوربي لا يتحقق، من هنا سعيت إلى تقديم فكرة التطور المادي في لفافة الدين، لكي يفهم أبناء وطني هذه المعاني جيدًا، ودعوت أصدقائي والشخصيات المرموقة وحدثتهم عن ضرورة «إصلاح الإسلام»[1] !

ونرى بين أعضاء المركز الماسوني الذي أسسه ملكم كتّابًا ساروا على نفس النهج منهم «الميرزا يوسف خان» مستشار الدولة، وصاحب كتاب «يك كلمة» أي كلمة واحدة، وهو من دعاة مزج الإسلام بآخر ما أنتجته الحضارة الغربية، ويصرح بضرورة تكميل الإسلام! وتغييره وفق مقتضيات العصر! وأنه لابد من تقليد أوربا في تنظيمات إدارة البلد، وبغير ذلك لا يمكن لدولة أن يكتب لها البقاء.

ويقول: بين دول الغرب تعتبر بريطانيا أول وآخر سند وصديق لنا[2].

ومن رؤوس التغريب والمسخ في إيران «فتح علي آخوند زاده» (آخوند أوف). يقول عنه فريدون آدميّت: «.. في مدرسة الأفكار الجديدة يعتبر ميرزا فتح علي آخوند زاده (١٢٢٨ – ١٢٩٥هـ) من المبدعين. إنه يمثل التفكير العلمي الناقد، رائد كتابة المسرحية والقصة الأوربية في الشرق، مبتكر إصلاح الخط وتغيير الحروف الهجائية في المجتمعات الإسلامية، منتقد الأدب الكلاسيكي،

---

١ - أنديشة ترقى..، آدميت، ص ٦٤ -٦٥.

٢ - تشيع ومشروطيت در إيران (بالفارسية)، عبدالهادي حائري، منشورات أمير كبير، ط ١، طهران ١٣٦٠هـ. ش .

ورافض التقليد في كتابة التاريخ، ومن دعاة أخذ العلم والحكمة الغربية، واضع أسس التفكير القومي الإيراني، ومنتقد السياسة والدين، والمؤمن بانفصال الدين عن السياسة، وعدوّ الحكم الاستبدادي وكل حكم فردي، من أنصار المشروطة (الحكم الدستوري) العقلي، العرفي القائم على الحقوق الطبيعية، والمنادي بالإصلاح الديني، مفكر مادي متحل بأفكار منظمة مبوّبة، ليس في نظام تفكيره تناقض أو تباين، كل ما يحمله هو أصالة المادة وسلطان العقل»[1] .

وهذا النص الذي يمثل خلاصة شخصية آخوند زاده، على لسان واحد من أنصاره والمستوعبين لحياته وأفكاره، يبين اتجاه الطبقة المثقفة أو المستنيرة! كما يسمونها، وأهدافها وآمالها، وهي: إصلاح الدين! وفق نظرة مادية[2] ، ثم إحياء القومية الإيرانية وتغيير الخط العربي واستبدال الحرف اللاتيني به، ثم الدعوة إلى النظام الدستوري، وهي دعوة لم تكن تستهدف القضاء على الحكم الفردي بقدرما كانت ترمي إلى جعل زمام التقنين بيد عملاء الغرب، وسدّ الطريق أمام فقهاء الشريعة ومنعهم من التدخل في شؤون المجتمع. وهذا هوالذي حدا بالشيخ فضل الله نوري – كما ذكرنا – إلى إعلان المطالبة بالحكومة «المشروعة» بدلاً من الحكومة «المشروطة» التي كان ينادي بها

---

١ - أنظر: أنديشه هاى ميرزا فتحعلي آخوند زاده (بالفارسية) ، فريدون آدميّت.

٢ -وهي محاربة الدين طبعًا، ومحاولة إزالته من المجتمع باسم الإصلاح.

هـؤلاء المهزومـون أمـام الغـرب، وكـان يشـبّه هـؤلاء المتغـربين بالسامري الذي أضلّ قوم موسى، وكان ينادي قائلاً: «أيّ أحمق يقبل أن يكون الكفر حاميًا للإسلام؟! وملكم النصراني حاميًا للدين المبين؟!»[1].

مـن الأسمـاء البـارزة بـين المـثقفين المتغـربين الإيـرانيين «عبـد الرحيم طالب أوف». ولد في تبريز سنة ١٢٥٠هـ، وفي السابعة عشر مـن عمـره هـاجر إلى جنـوب روسـيا، وألـف كتبًـا في الاجتمـاع والسياسـة، وأرسـلها إلى إيـران، يبـث فيهـا أفكـاره بشـأن إجـراء إصلاحات في الدين! وتغيير الحروف العربية في الخط الفارسي[2].

في كتابه «مسائل الحياة» (بالفارسية) يعقد حوارًا بين آقا رضا (وهو عالم دين تقدمي!) وأحمد آقا (مثقف مزود بالعلوم الحديثة) يتحدث فيه آقا رضا عن علوم الدين التي تعلمها، ويستهين بها، ويصفها بأنها «ألسنة الأموات، وأنها معلومات قد سقطت من حيّز الانتفاع وأصبحت من الخرافات!)» ثم يبدأ بتوضيح عطاء العلوم الحديثة[3].

ماذكرناه من أسماء لمثقفين متغربين إيرانيين إنما يمثل الرعيل الأول، وتبعهم رهط كبير ألّفوا في بثّ فكرة التغريب وإصلاح

---

١ -تذكرة الغافل وإرشاد الجاهل (بالفارسية)، فضل الله نوري، ص ١٨

٢ - انظر: ازگاها تا مشروطيت (بالفارسية)، محمد رضافشاهي، ص ٣٩٢، طهران ١٣٥٤هـ. ش تاريخ مشروطه إيران (بالفارسية)، أحمد كسروي، ص ٦٢، ط ١٢، طهران، منشورات أمير كبير.

٣ - مسائل الحيات (بالفارسية)، عبدالرحيم بن شيخ أبوطالب، ص ٤٩، مطبعة غيرت، تفليس ١٣٢٤هـ.ق.

الإسلام (أو مسخ الإسلام) كثيرًا من الكتب والمقالات، وأسسوا المحافل والجمعيات، وكان لهم أكبر التأثير على الأدب والفكر والسياسة في إيران.

يلاحظ في العقود الأخيرة من تاريخ إيران ظهور ردّ فعل بين المثقفين الإيرانيين تجاه الليبرالية الغربية، بعد أن سجّل الغرب أبشع صور مصادرة الحريات وظلم الناس واستعبادهم في بلدان الشرق الإسلامي. لكن ردّة الفعل هذه كانت كما يقول الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) أشبه بصحوة إنسان لا يزال يثقل جفونه نوم عميق. فلم يتّجه هؤلاء المثقفون إلى الأصالة بعد أن صدمهم الغرب، بل اتجهوا إلى الغرب أيضًا، ولكن في إطار ماقدمه الغرب كبديل لليبرالية، وهو الاشتراكية والشيوعية. وظهر «حزب توده» ليقدم ف

الفكر الماركسي اللينيني في إطار الإسلام[1] !! وظهرت تفاسير لآيات من القرآن الكريم ينحو فيها أصحابها منحى ماركسيًا ثوريًا!! وحتى الغيب فسروه بأنه «المراحل التمهيدية لنمو الثورة التوحيدية، وفترة حدوث التحولات الكمية»[2].

يطول بنا الحديث لو أردنا استعراض كل جهود المتغربين في إيران لبث الأفكار المنحرفة عن الدين والتشكيك في المنهج

---

١ - انظر: سقوط حزب توده، محمد علي آذرشب، منشورات منظمة الإعلام الإسلامي، طهران.

٢ - انظر: ماترياليسم در إيران (بالفارسية)، مطبوع مع كتاب: علل گرايش به ماديگري، مطهري، ص ٥ – ٥٣، ط ٨، طهران ١٣٥٧هـ . ش.

الإسلامي الأصيل، لكننا أردنا تقديم نموذج من تلك الجهود، لنفهم عظم المهمة التي أخذها على عاتقهم دعاة الأصالة الإسلامية ودعاة إحياء الفكر الإسلامي في إيران، ومنهم الشهيد مطهري رضوان الله عليه.

الشهيد مطهري واجه في عملية الإحياء مشكلتين: الأولى، مشكلة الفئة المتحركة من الشباب والمثقفين الذين يتشبعون بأفكار الغرب ليبراليها واشتراكيها، ويحملون نظرات سلبية قاتمة عن الدين وعلماء الدين وكتب الدين. والثانية، مشكلة الفئة الجامدة الهامدة من المسلمين الإيرانيين التي تفتقد كل تحرك، وترى بأم أعينها ما يضجّ به المجتمع المسلم من فساد وانحراف، غير أنها تكل الأمر إلى الله! وتنتظر الفرج الغيبي!

أهم ما نهض به الشهيد مطهري هو مكافحة الانحرافات الفكرية كمقدمة ضرورية لإحياء الدين في المجتمع، وهذا ما يؤكد عليه الإمام الخميني (قدس سره) في نعيه الشهيد مطهري إذ قال:

«مطهري كان لي ولدًا عزيزًا وللحوزات العلمية الدينية سندًا قويًا، وللشعب والبلد خادمًا معطاء.. ومايجب أن أقوله بشأنه هو إنه قدّم خدمات جلّى للإسلام والعلم..».

«إنه كان من النوادر في فهمه الإسلام ومختلف فنون الإسلام والقرآن الكريم..».

«لقد قضى عمره الشريف على طريق الأهداف الإسلامية المقدسة وقارع بشدّة الانحراف والالتقاط.. وأنا أوصي الطلبة

والمثقفين الملتزمين أن لا يدَعوا كتب هذا الأستاذ العزيز يلفّها النسيان بفعل دسائس أعداء الإسلام..» [1].

الأستاذ الشهيد مطهري يوضح بنفسه أهدافه في نشاطاته الفكرية ويقول:

«منذ سنة ١٣٣٠ هجرية شمسية (استشهد في ١٣٥٨هـ .ش / ١٩٧٩م) حيث مسكت القلم لأكتب مقالاً أو لأخطّ كتابًا ماكان أمامي هدف سوى حلّ المشاكل والإجابة على الأسئلة المطروحة في الشؤون الإسلامية المعاصرة. كتاباتي بعضها فلسفي، وبعضها أخلاقي وبعضها اجتماعي وبعضها تاريخي، ومع اختلاف موضوعات هذه الكتابات فإنها توخّت هدفًا واحدًا لا غير».

«الدين الإسلامي الحنيف دين مجهول، حقائقه قد انقلبت بالتدريج في نظر الناس، والسبب الأساس في إعراض طائفة من الناس هو المفاهيم الخاطئة التي قُدِّمت باسم هذا الدين. هذا الدين المقدس يتعرض في عصرنا الراهن أكثر من أي شيء آخر إلى إساءة بعض أدعياء حماية الدين».

«هجوم الاستعمار الغربي من جانب، بعملائه المرئيين وغير المرئيين، وقصور أوتقصير كثير من أدعياء حماية الإسلام في هذا العصر من جانب آخر، أدّى إلى تعرّض الفكر الإسلامي باستمرار في الحقول المختلفة أصولاً وفروعًا إلى هجوم غادر».

---

١ - سيرى در آثار استاد شهيد مطهري (بالفارسية)، ستاد بزرگداشت سالگرد استاد، ص ٢٠ -٢١، طهران ١٣٥٩هـ . ش.

«من هنا فإنني العبد الضعيف رأيت أنّ واجبي يفرض عليّ العمل في هذا الميدان قدر استطاعتي..»

«لا أدّعي طبعًا أن الموضوعات التي تناولتها في كتاباتي كانت من أهم الموضوعات، ولكني أستطيع أن أدّعي بأني لم أتجاوز نطاق حل المسائل المستعصية في الفكر الإسلامي وعرض المفاهيم على حقيقتها بقدر الإمكان، وإن لم تستطع هذه الكتابات أن تحول دون الانحرافات على الصعيد العملي، فلعلها تستطيع أن تقف بوجه الانحرافات الفكرية وخاصة في المجالات التي يتذرع بها أعداء الإسلام. وفي هذا المجال حاولت، حسب تشخيصي رعاية الأولويات»[1].

الأستاذ مطهري وجد أن مهمته الأولى هي تقديم الإسلام بلسان العصر، أو بعبارة أخرى الجمع بين «الأصالة» و«المعاصرة»، وبدون ذلك فإن الاتجاه الفكري في المجتمع الإسلامي سيتخذ أحد سبيلين: إما التقوقع والتخلف والابتعاد عن روح العصر، وإما تحريف الإسلام باسم التقدمية والبروتستانتية، وإلى هذا يشير الأستاذ الشهيد في تحذيره روّاد النهضة الإسلامية إذ يقول:

«أنا باعتباري فردًا أحسّ بمسؤوليتي الإلهية أوجه تحذيري إلى زعماء النهضة الإسلامية العظام، وأتم الحجة بيني وبين رب العالمين وأقول لهم: إن نشر الأفكار الغربية والتقاطها باسم الفكر الإسلامي بعد إضفاء الطابع الإسلامي عليها، سواء كان

---

١ -عدل إلهي (بالفارسية)، مطهري، ص ٨ و ٩.

ذلك عن سوء نية أو عدم سوء نية، خطر يهدد كيان الإسلام».

«طريقة مواجهة هذا الخطر لا تتثمل في المنع والحظر، وهل يمكن منع العطشى المتلهفين إلى الماء من تناول الماء بحجة أنه ملوث؟!! إنها مسؤولياتنا التي تفرض علينا أن نقدم كتبًا بلغة العصر في الحقول الإسلامية المختلفة، لو أننا عرضنا ماء قُراحًا سلسبيلاً بالمقدار الكافي لما اتجهوا إلى الماء الملوّث...».

«طريق المواجهة هو عرض المدرسة الإسلامية بشكل صحيح في كل المجالات وبلغة العصر. حوزاتنا العلمية التي تموج اليوم بالنشاطات الاجتماعية يجب أن تعي مسؤوليتها العظيمة العلمية والفكرية. يجب أن تضاعف أعمالها العلمية والفكرية عشر مرات. يجب أن تعلم أن الاقتصار على الدراسات الفقهية والأصولية الرسمية لا يلبي حاجات الجيل المعاصر»[1].

وهكذا يلخّص الأستاذ مطهري نشاطه الفكري والثقافي لإحياء الدين في المجتمع، ونجد مصداق ذلك فيما كتبه الأستاذ من مقالات وألقاه من محاضرات ودوّنه من كتب. فهو قد جمع أولاً بين مختلف احتياجات المجتمع الفكرية، ابتداء بالفلسفة الإسلامية المعمّقة التي طرحها من خلال تعليقه على كتاب: «أصول فلسفة وروش رئاليسم = أصول الفلسفة وطريقة الواقعية»، في خمسة أجزاء، وانتهاء بكتابة القصص التربوية المبسطة المستقاة من السيرة والتاريخ الإسلامي في كتابه «داستان راستان»

---

١ -نهضت هاى إسلامى در صد سال أخير (بالفارسية) ، مطهري، ص ٧٥.

= «قصص الأبرار» في جزئين.

لقد استطاع مطهري أن يطرح القضايا الفلسفية من خلال معالجة الواقع الاجتماعي، كما فعل في «**علل گرايش به ماديگرى**» = (أسباب النزوع إلى المادية)، وفي «عدل إلهي» كما طرح الخطوط العامة لنظرة الإسلام إلى الكون والحياة، في عدة كتب تعالج موضوع التوحيد والنبوة والقيامة[1]. كما كتب دروسًا في العلوم الإسلامية كالعرفان والفلسفة والمنطق والكلام؛ وقارع النظرية المادّية وتفسيرها للتاريخ والمجتمع في كتب عديدة[2]؛ وتناول قضية المرأة في عدد من الكتب والمقالات[3]؛ وحارب الالتقاط من خلال الكشف عن زيف الالتقاطيين وخوائهم الفكري؛ وله في تفسير القرآن وربط القرآن بالحياة دروس ومحاضرات ومقالات؛ وله في توضيح المفاهيم الإسلامية وبيان الانحرافات التي تراكمت على هذه المفاهيم باع طويل أيضًا.

كلّ هذا يمثل جهدًا متواصلاً استمر قرابة ثلاثين عامًا في

---

١ - مثل كتاب: الإنسان والإيمان، والتصور التوحيدي ، والوحي والنبوة، والحياة الخالدة، وقد تُرجمت هذه السلسلة من الكتب مع إضافة مقدمات وتعليقات عليها في سلسلة «مقدمة في التصور الإسلامي» منشورات مؤسسة البعثة، طهران.

٢ -انظر: المجتمع والتاريخ، في جزئين ترجما من الفارسية مع مقدمة وتعليقات وملحقين ، منشورات مؤسسة البعثة، طهران.

٣ - انظر: مسألة الحجاب، ونظام حقوق المرأة، الشهيد مطهري ، ويذكر أن معظم محتويات الكتاب الثاني نشرها الأستاذ في مجلات نسوية كانت تنشر في زمن نظام الشاه، وكانت هذه المجلات منحرفة تُدار بيد منحرفين، لكن الاستاذ الشهيد اقتحمها، غير مبال بنهج المجلة، من أجل أن يوصل كلمة الإسلام إلى القطاع النسوي الإيراني بمختلف اتجاهاته.

الجمع بين «الأصالة» و«المعاصرة» من أجل إحياء الإسلام في مجتمع تكالبت عليه قوى الشر والضلال والانحراف لتبعده عن المسيرة الإسلاميّة الصحيحة.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا جهوده المبذولة من أجل استنهاض الهمم وتحريك الطاقات وغرس روح التحرك وروح العمل والجهاد والشهادة في المجتمع، فقد كان لها تأثير كبير على دفع القطاعات المتقوقعة المنزوية إلى ساحة النشاط الاجتماعي الرسالي، وعلى إزالة الأفكار والمفاهيم السلبية التي عشعشت طويلاً في أذهان الفئة المتدينة التقليدية تجاه العمل السياسي والنشاط الاجتماعي الإسلامي[1].

بقي أن نؤكد هنا أن الجهاد الفكري الطويل، الذي خاضه الشهيد مطهري، لا يعني انصرافه عن الجهاد من أجل القضاء على النظام السياسي الظالم الحاكم في المجتمع. كل مصلح إسلامي حقيقي مخلص لايمكن أن ينسى مهمة تحرير الأمة ورفع الظلم عنها وهويخوض معترك الصراع الفكري.

الشهيد محمد باقر الصدر – مثلاً – مع كونه رائد الفكر الإسلامي المعاصر، يرى أن صفة محاربة الظالمين لا تنفك عن

---

١ -انظر إحياء الفكر في الإسلام، حيث يركز الأستاذ على مفهوم العمل والحركة في الإسلام، وكتاب: شهيد يتحدث عن شهيد، حيث يوضح الأستاذ معنى الشهادة والشهيد، ويبين المكانة التي يتمتع بها الشهيد في المفاهيم الإسلامية، ويستعرض صورًا من عظمة مواقف شهداء الإسلام، الكتابان من ومنشورات مؤسسة البعثة، طهران.

الإسلام وعن حركة الإنسان المسلم والمجموعة المسلمة، غير أن الظروف والملابسات هي التي تفرض طريقة ممارسة هذه الصفة[1]. ويرى أن نزعة «الانتقام من الجبارين» نزعة تكاملية لا يمكن للإنسان السائر على طريق الله أن يتخلى عنها[2].

والأستاذ الشهيد حسن البنا عُرف بدعوته الفكرية والأخلاقية والتربوية، لكنه مثل سائر العاملين المتلزمين المخلصين كان يؤكد على ضرورة إعداد القوة اللازمة للمعركة العنيفة ضد الباطل. وجاء هذا التأكيد واضحًا في قوله:

«وفي الوقت الذي يكون فيه منكم – معشر الأخوان المسلمين – ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل نفسها روحيًا بالإيمان والعقيدة، وفكريًا بالعلم والثقافة، وجسميًا بالتدريب والرياضة. في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجاج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبّار، فإني فاعل إن شاء الله ..»[3].

وهذا المفكر المسلم أبو الأعلى المودودي يشير إلى عقم الاكتفاء بأسلوب الوعظ والإرشاد فيقول: «يصبح من العبث الدعوة إلى الإسلام على طريقة التبشير المسيحي. ولو طُبعت ملايين النشرات تدعو إلى التمسك بالإسلام وتصيح بالناس أن

---

١ - رسالتنا، مقال: رسالتنا فكرية انقلابية.

٢ - خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، الشهيد الصدر، فصل مسار الخلافة على الأرض.

٣ -مشكلات الدعوة والداعية، فتحي يكن، ص ٢٣٠.

(اتقوا الله) صباح مساء، لما كانت ذات فائدة تذكر، إذ ما هي الفائدة العملية التي ستنجم عن تأكيد أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وأن فوائده ومزاياه ليس لها مثيل عن طريق القلم والخطابة؟! إن حاجة العصر تتطلب إبراز هذه المزايا بصورة عملية في عالم الواقع.. إن مشاكل العالم المادية لن تحلّ بمجرد القول بأن الإسلام يملك حلها. إن قيمة الإسلام الذاتية لابد وأن تبرز إلى الوجود في هيئة نظام عملي مهيمن يلمس الناس آثاره ويجنون ثماره.. إننا نعيش في عالم يقوم على الصراع والكفاح. والخطابة والوعظ لن تفلح في تغيير مجراه، ولكن الكفاح الثائر وحده هو الذي يستطيع ذلك»[1].

والمودودي لا يريد أن يستهين طبعًا بدور الكلمة في الدعوة إلى الله، وهو الكاتب والواعظ والخطيب، بل يردّ على الذين يقنعون أنفسهم بالاكتفاء بالكلمة، إنه بعبارة أخرى يردّ على تجار الكلمة وعلى المهزومين نفسيًا أمام بطش الجبارين، ويؤكد أن الكلمة الجادة المخلصة لاتفترق عن الحركة الجادة، وعن الكفاح الثائر. والعمل الجاد هو الدليل الوحيد على صدق جدية الكلمة.

الشهيد مطهري كان أيضًا من المؤمنين بأن التغيير الاجتماعي في المنظور الإسلامي لا يمكن أن يتحقق دون ثورة كاملة تطيح بالظالمين، لكن هذه الثورة لا يمكن أن يُكتب لها البقاء، ولا

---

١ -رسالة: داء المسلمين ودواؤهم، المودودي، ص ١٥

يمكن صيانتها من الزلل والانحراف إلا إذا ساندتها نهضة فكرية عميقة أصيلة تقدم الإسلام في جميع مجالات الحياة وفق مقتضيات العصر.

يقول: «.. كل نهضة اجتماعية يجب أن يكون لها سند من نهضة فكرية وثقافية، وإلا فسوف تقع في فخ التيارات التي تمتلك ثروة فكرية، وتتجه نحو هذه التيارات فتغيّر مسارها. وقد رأينا أن الجماعات الفارغة من الفكر الإسلامي كيف سقطت كالذبابة في أوتار بيت العنكبوت»[1] .

ويقول في موضع آخر:

«.. لو استيقظ الشرق واكتشف هويته الإسلامية، فلا تستطيع حتى القنبلة الذرية أن تصد هذه القوة العظيمة، وهذه الجماهير الثائرة. وطريق اليقظة التعرف على تاريخنا وثقافتنا وإيديولوجيتنا..» [2] .

كانت هذه وقفة قصيرة ضرورية – في خاتمة مطافنا – عند حقيقة هامة هي أن الشهيد مطهري، مثل سائر كبار المصلحين الإسلاميين المعاصرين ودعاة إحياء الفكر الإسلامي، لم يكن يرى العمل الفكري منفصلاً عن العمل الاجتماعي في المجتمع، بل كان يرى عملية الإحياء الفكري مقدمة ضرورية للتغيير الشامل، وضمانًا أكيدًا لسلامة المسير وللوقاية من الزلل والانحراف. والحمد لله أولاً وآخرًا.

---

١ -نهضت هاى إسلامى در صد سال أخير (بالفارسية)، مطهري، ص ٧٤

٢ -بيرامون انقلاب إسلامى (بالفارسية) ، مطهرى، ص ١٢٥

وحدة الأمة
في خطاب الشهيد مطهري

• يقول الاستاذ الشهيد: "يبدو أن يد أمثال أبي سفيان لا تزال تعبث للتفرقة بين المسلمين متظاهرة بالولاء لآل البيت"!!

• التآلف يأتي من اجتماع الناس على مصلحة رسالية مثل مصلحة الوطن والقوم، غير أن التاريخ لم يشهد مصلحة رسالية تجمع الأفراد وتؤلف بين قلوبهم كالمشروع الديني • خاصية الحياة في المجتمع: التضامن والاتحاد بين اكثر أعضائه وجوارحه • الإنسان القابع في ذاته الذي لا يحمل مشاعر حبّ لغيره إنما هو إنسان جبان نحيل متكبر قاسي القلب مغرور ليس في روحه أية إضاءة ولمعان.

قضية تقارب المذاهب الإسلامية ووحدة الأمة تحتلّ مساحة كبيرة من نشاطات الشهيد مطهري الفكرية والدعوية والعملية. وهذه ظاهرة طبيعية في رجل يحمل همّ إحياء الأمة.

باختصار نذكر أهم محاور خطاب مطهري في هذا المجال.

المحور الأول: اهتمامه بخطاب الوحدة في القرآن الكريم،

ويكرر في أحاديثه آيات من كتاب الله تؤكد على وحدة الصف الإسلامي مثل قوله سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾، وقوله:﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقوله: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ ..

ويذكر الآية الكريمة: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ﴾ ويرى أن الدعوة في الآية إلى مطلق الخير، وأن أهم الخير الدعوة إلى الوحدة الإسلامية[1].

المحور الثاني: سرد سيرة النبي والإمام علي في المحافظة على وحدة الأمة. بشأن سيرة النبي(ص) يذكر اهتمام الرسول بعقد الأخوة بين المهاجرين والأنصار، حتى كانوا لأمد يتوارثون.

ثم يطيل الحديث في سيرة أمير المؤمنين علي(ع) في هذا الإطار، ذلك لأن مخاطبيه عادة هم الشيعة، يريد بذلك أن يقول لهم: إذا كنتم شيعة علي حقًا فعليكم أن تكونوا أكثر من غيركم اهتمامًا بوحدة الأمة، رادًا بذلك على الفئة التي تتخذ من الولاء لآل البيت مدخلاً للتفرقة بين المسلمين.

وفي سيرة علي (ع) يركز على موقفه من الخلفاء لحفظ وحدة الأمة، وتعامله بإخلاص معهم لصيانة الإسلام والمجتمع

---

١ -يادداشتهاي استاد مطهري (فارسي) ٧/ ٤١٨ - ٤١٩.

الإسلامي، من ذلك نصيحته للخليفة الثاني أن لا يخرج مع الجيش في فتح إيران خشية أن يسبب قتله في تجرّؤ العدوّ وفي تصعيد معنويات الجيش المعادي.

ويشير أيضا إلى موقف أبي سفيان الذي حرّض عليًا(ع) لأن يثور على بيعة أبي بكر متظاهرًا بأنه يؤمن بأحقية علي في الخلافة، وإلى موقف عليّ(ع) في رفض هذا التحريض بشكل حاسم، مؤكدًا اهتمامه بسلامة الإسلام.

بعد ذلك يقول الأستاذ الشهيد: «يبدو أن يد أمثال أبي سفيان لا تزال تعبث للتفرقة بين المسلمين متظاهرة بالولاء لآل البيت»!! ويحذّر من هذه الأيدي مؤكدًا ضرورة وضع سيرة علي(ع) نصب العين لدفع شرّ هؤلاء المفرقين"[1].

وفي كتابه *سيرى در نهج البلاغة* يركز على موقف علي(ع) من وحدة الأمة، وما قدمه على هذا الطريق من تضحيات. ولا بأس أن أنقل عنه عبارة تنبئ عن مواجهة في عصره بين التقريبيين الإحيائيين والمفرقين المتحجرين يقول:

«علي أصبح فداء للوحدة الإسلامية، أيُّ شخصٍ كانِ بقَدرَ علي في احترام الوحدة؟ الآخرون كانوا يقطعون وهو كان يوصل.

(من المؤسف) أن رجلاً اليوم يصعد المنبر ليقول: (كنت بحمد الله منذ بداية حياتي معارضًا للوحدة الإسلامية) لا كثر الله من

---

١ - امامت ورهبري (فارسي)/ ١٨ - ٢٠.

أمثالك في هذا المجتمع يا رجل!! ألم تسمع قوله تعالى ..." [1] ثم يذكر الآيات الداعية إلى الوحدة ونبذ الاختلاف.

المحور الثالث: محور بيان طبيعة الدعوة الإسلامية، وهو ما يؤكد عليه الأستاذ الشهيد في كتاباته ومحاضراته بسبب شيوع الخطاب القومي والطائفي في عصره، فيفصّل القول في عالمية الإسلام، ويعرض موقف القرآن والسيرة من الأطر القومية والعشائرية وأي إطار آخر يفصل بين المسلمين.

يستعرض الخطاب الغربي الموجّه إلى الإيرانيين بشأن الدين الإسلامي.. وهو خطاب يزعم أن الإسلام غريب على الإيرانيين ولا يرتبط بهم لا قوميًا ولا لغويًا ولا ثقافيًا، ويردّ على ذلك في كثير من كتبه مؤكدًا على عالمية الدعوة الإسلامية وأسسها الإنسانية، ومشيرًا إلى أن المسيحية التي يعتنقها الغرب هي دعوة انبثقت من أرض فلسطين فهل يمكن اعتبارها غريبة عليهم؟!

ثم يستعرض الأسس التي يقوم عليها الإسلام في تقويم الإنسان من القرآن: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ومن السنة: «يا معشر قريش إن حَسَب الرجل دينه ومروءته خُلُقه، وأصله عقله و "الا إن العربية ليست بأبٍ والد ولكنها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلغ به حَسَبُه»[2].

---

١ - مجموعه آثار(فارسي) ٢٥/ ٣٠٧.

٢ - انظر " خدمات متقابل إيران وإسلام (فارسي)" ص ٦٢ - ٦٩.

المحور الرابع: الحج ووحدة المسلمين. خصص الأستاذ الشهيد كتابًا للحديث عن الحج، وكله يدور حول دور الحج في ترسيخ وحدة المسلمين، والمعاني التي تنطوي عليها مناسك الحج من توحيد للصفوف وتأليف للقلوب وإزالة للفوارق القومية والمذهبية والطبقية.

ويرى أن سنّة الرسول(ص) تقتضي تكريس كل شيء في الحج على طريق وحدة المسلمين، واستشعار روح الأخوة بينهم. إذ إن رسول الله(ص) قد استثمر هذا الموسم ليعلن قائلاً: «أيها الناس إنّ ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عندالله أتقاكم. وليس لعربيّ على عجمي فضل الا بالتقوى» (تحف العقول/ ٣٤).

ويذكر عن علي(ع) قوله عن الحج: «جعله سبحانه وتعالى للإسلام علمًا» (نهج البلاغة/ الخطبة١).

ويذكر معنى العَلَم بأنه الراية التي يجتمع حولها المدافعون عن حياض الأمة، وهي ترمز إلى حياة الجماعة وبقائها وقدرتها ومقاومتها. والعكس من ذلك إذا انتكست الراية فإنها تدل على السقوط والاندحار.

وينقل عن الإمام الصادق قوله عن الحج أيضًا: «فجعل فيهم الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا». ويشرح المناسك واحدًا واحدًا مبينًا أنها جميعًا تنطوي على معنى ترسيخ مفهوم الجماعة

والأمة الواحدة في الإسلام[1].

المحور الخامس: رفض مقولة «إما تقبل كل ما عندي أو ترفض كل ما عندي». هذه هي عبارة الأستاذ الشهيد، وهي تعبير آخر عن مقولة: «لنتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

ينقل رأي المعارضين لوحدة المسلمين حيث يقولون إن الوحدة تعني التنازل عن المعتقدات، وهم بذلك يخلطون بين توحيد المذاهب ووحدة الأمة في الإطار الإسلامي. ويوضّح أن الوحدة تعني التعاون في حقل المشتركات وهي كثيرة للغاية، ويبقى كل مذهب محتفظًا بآرائه الخاصة. ويورد أمثلة من سيرة علي وآل عليّ، فهم وإن كانوا يحملون رؤيتهم الخاصة، غير أن ذلك لم يمنعهم من أن يقولوا: «والله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصة» (نهج البلاغة/ ٧٢). ويذكر لعليّ(ع) أيضًا قوله: «من استحكمت لي فيه خصلة من خصال الخير احتملته عليها واغتفرت ما سواها ولا أغتفر فقدَ عقل ولادين» حاول الاستاذ الشهيد في مشروعه الفكري أن يرسّخ فكرة وحدة النفوس الإنسانية الإلهية ويدعو دائمًا إلى تبديل (أنا) إلى (نحن) ويرى أن هذا التبديل هو واحد من أهداف المصلحين الكبار عبر التاريخ. ويغوص في بحار التاريخ والأدب ليستخرج منها ما يؤيد كلامه ويجعله مؤثرًا في النفوس. يستشهد في هذا

---

١ - انظر الحج، ص ص ٦٧، ٦٨، ٧٩، ٨٠، ٨١.

الموضوع بمولانا جلال الدين الرومي الذي يقوم عرفانه على أساس توحيد النفوس وإزالة ما يمنع التقاءها على الحبّ والوداد. من ذلك قوله:

جان گرگان وسگان از هم جداست

متحد جانهاي شيران خداست

أي: إن نفوس الذئاب والكلاب متفرّقه/ بينما تتحد أرواح أسود الله.

همچو آن يك نور خورشيد سما

صد بود نسبت به صحن خانهها

أي: مثل نور الشمس الواحدة في السماء/ تصبح مائة عندما تتفرق في صحن البيوت

ليك يك باشد همه أنوارشان

چون كه برگيري تو ديوار از ميان

لكنّ أنوار (هذه البيوت) تصبح واحدة/ عندما تزيل الجدران بينها [1].

المحور السادس ـ العواطف الانسانية والوحدة: يرى الأستاذ الشهيد أن الانسان بذاته يتجه إلى النزعة الفردية، وهذه النزعة الفردية تصطدم عادة بالنزعات الفردية للآخرين، ويحدث الصراع بين الأفراد. غير أن ثمة عوامل أخرى قد تأتي وتفضّ هذا الصراع، وهذه العوامل إما أن تكون "مصلحية" أو "رسالية".

العوامل المصلحية تجمع الفرقاء في تعاون تجاري أو اقتصادي

---

١ - آشنايي با قرآن (فارسي) ١٨/٥ - ٢٩.

فيرى كل واحد من الشركاء أن مصلحته مرتبطة بمصلحة غيره من الشركاء عندئذ يتعاونون في إطار تحقيق هذه المصلحة، وهذا يمكن أن نطلق عليه اسم "تعاون" لا "تآلف".

التآلف يأتي من اجتماع الناس على مصلحة رسالية مثل مصلحة الوطن والقوم، غير أن التاريخ لم يشهد مصلحة رسالية تجمع الافراد وتؤلف بين قلوبهم كالمشروع الديني.

ثم يذكر الأستاذ الشهيد أمثلة من تآلف المسلمين في ظل الرسالة الإسلامية في عصرها الأول، وينقل نصوصًا من سيرة الصحابة ومن سيرة الإمام علي تبين قدرة الدين على رفع مستوى هموم الناس إلى حمل هموم الأمة حتى بلغ بالامام علي(ع) إلى أن يقول:

"أو أبيت مبطانًا وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تعيش ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القدّ

(نهج البلاغة، الرسالة ٤٥).

وتأكيد القرآن على هذه الألفة بين القلوب تبينها آيات متعدّدة وتبين أهميتها كقوله سبحانه:

﴿ وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا..﴾ وقوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [1].

المحور السابع : الوحدة والحياة: في هذا المحور يتجه الأستاذ

---

١ - آشنايي با قرآن (فارسي)٣/ ١٦٦ - ١٧١.

الشهيد نحو فهم حضاري للوحدة، فهو يرى أن الإسلام مهمته الإحياء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

ويرى أن طبيعة الجسم الحي أن يكون متواصلاً متواسيًا مرتبطًا ارتباطًا عضويًا. وفي ذلك يقول الرسول(ص): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». (الجامع الصغير ١٥٥/٢).

يقول في كتابه: *احيای تفكر إسلامي*: «إحدى علامات الحياة في المجتمع أن يقوى التضامن بين أفراده، خصائص الموت أن تتلاشى الاعضاء وتتفرق وتنفصل عن بعضها، وخاصية الحياة في المجتمع التضامن والاتحاد بين اكثر أعضائه وجوارحه. وهل المجتمع الإسلامي اليوم مجتمعًا حيًّا أم ميتًا؟ بسبب ما نراه بين المسلمين اليوم من نزاعات، وما ينشغلون به من حروب وصراعات داخلية، وما يوفرونه للعدوّ من فرص للسيطرة على مقدراتهم. فهم أموات»!![1].

المحور الثامن: العشق والوحدة: "العشق بغضّ النظر عن نوعه أهو غريزي أم روحي يُخرج الانسان من دائرة ذاتياته. الذاتية سجن وحصار، وعشق الغير يكسر هذا الحصار.

الإنسان القابع في ذاته الذي لا يحمل مشاعر حبّ لغيره إنما هو إنسان جبان نحيل متكبر قاسي القلب مغرور ليس في روحه أية

---

١ - ص ٢٣ و ٢٤ من الكتاب.

إضاءة ولمعان. وإذا دخل العشق يغيّر جوهر الإنسان ويجعله فردًا رقيقًا ذكيًا وثّابًا، كما يقول المولوي:

از محبت تلخها شيرين شود از محبت مسها زرين شود

أي: من المحبّة يصبح كل مرّ حلوًا/ ومن المحبّة يصبح النحاس ذهبًا[1]".

ومن هذه النظرة ينطلق الاستاذ الشهيد في فهم العلاقة بين الرجل والمرأة، فهي ليست علاقة شهوية محضة، إذ إن هذه العلاقة تكرّس الذاتية، بل هي أسمى من ذلك فهي علاقة ودّ ورحمة وسَكَن كما يقول سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[2].

ويخلص الأستاذ الشهيد من هذا المحور أنّ هبوط عاطفة الحبّ والودّ في النفوس عامل تمزيق وتفتيت، بينما الحبّ يلين القلوب ويصقل العواطف ويهذّب الطباع ويجمع المتفرقين.

المحور التاسع: العدل والاحسان والوحدة: يقف الاستاذ الشهيد عند قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾

فيرى أن البشر بحسب عواطفهم الاجتماعية لهم ثلاث حالات: العدل أو الاحسان أو البغي.

بالعدل يتعامل الناس على أساس حفظ الحقوق، يحافظون على حقوقهم ولا يعتدون على حقوق الآخرين، وبالإحسان يتعامل

---

١ - يادداشتهاي شهيد مطهري (فارسي) ٩/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

٢ - آشنايي با قرآن (فارسي) ٦/٧٦ - ٧٨.

الناس على أساس الايثار، يتنازلون عن حقوقهم من أجل مصالح غيرهم، ينفقون من أموالهم وجاههم وراحتهم لمساعدة المحتاجين إليهم.

وبغير العدل والإحسان لا يكون إلاّ البغي. والبغي أن يعتدي الإنسان على حقوق الآخرين.

وبلهجة حادّة قاسية يقول الأستاذ الشهيد: «لو تطلعنا إلى مجتمعاتنا الإسلامية لرأينا التعامل السائد هو البغي. فمجتمعاتنا تضجّ بأذى الآخرين وكأننا مصابون بالساديّة!

ثمة كلام شائع يقول إن الغربيين ذوو عقل ومنطق ونحن الشرقيين ذوو عاطفة. كلاّ!! لو كانت عندنا عاطفة اجتماعية لما كان بيننا هذه العلاقات المحتقنة وهذه الذاتيات المستفحلة. يكذب بعضنا على الآخر، ونتظاهر أحيانًا بالكرم فنقيم الولائم، لكننا لا نكفّ عن ظلم من تحت رعايتنا من زوجة واطفال ومستخدمين» [1].

ولعلّ هذه النبرة الحادّة تدلّ على أن الاستاذ الشهيد كان مستاءًا مما يراه في مجتمع عصره من ازدواجية الشخصية ومن مظاهر تدلّ على نسيان الأهداف الانسانية التي خُلق الانسان من أجلها.

وكيف لا يتألم ولا يثور وهو الإحيائي الذي يريد أن يعيش الناس لأهداف أكبر من مصالحهم الشخصية .. لأهداف توحّدهم وترفعهم وتبارك لهم عمرهم وتزكّيه!!

---

١ - ياداشتهاي شهيد مطهري (فارسي) ٤١٨/٧.